صَفحات

قادت إلى الخيرات

أبي حفص أحمد الجوهري عبد الجواد

الألوكة
www.alukah.net

صفحة من علوّ الهمّة

صَفعات

قادت إلى الخيرات

تأليف

أبي حفص أحمد الجوهري عبدالجواد

مقدمة

لفتت انتباهي ظاهرةٌ في سِيَر العلماء والدعاة – جمعتُ شواهدها من مواقف بعضهم – كانت سببًا في توجيههم إلى ساحة العلم والمنافسة فيه، حتى صاروا أئمة ودعاة، وربما لم يكن يخطر لهم هذا ببال، ولا أن يكون ذلك هو السبب فيه.

وقد كتبتُ عن هذا في الماضي كتابًا لطيفًا وعنونته بعنوان: " صفعات قادت إلى الخيرات "، واختصرت منه كلمات يسيرة، أتبعتها بفرائد من الفوائد ووضعتها بين يدي إخوتي القراء؛ نشرها موقع "الألوكة" العامر، في تسع مقالات، وها هي تي أجمع شتاتها في هذا الكتيب؛ عسى أن يكون فيها نفع لمن يطالعه؛ تدفعه إلى نشاط، أو تمنعه من تقهقر.

المؤلف

تمهيد

نقول في أمثلتنا الحكيمة: "رُبَّ ضارَّة نافعة"، "ومن المِحَن تأتي المِنَح"، "والنور مِن رَحِم الظلماء مسراهُ".

وليس يصدق هذا على شيء أكثر مما يصدق على حياة أهل العلم، خاصَّة في مرحلة التوجُّه؛ حين يكون الواحد منهم على طريق عاديَّة فتحرفه عنه كلمةٌ أو موقف ويكون بالنسبة له نقطة المفترق، فإذا هو يدير ظهره لماضيه ويبدأ حياة جديدة جدًّا، يطلب فيها العلم ويجتهد في تحصيله حتى يبزَّ أقرانه ومَن سبقوه، ويرتفع لواؤه حتى يتفوق على شيوخه ومعلِّميه، بهذه الروح سافرت أرقب حياة هؤلاء العلماء...

مكثت هناك؛ أتأمل وأكتب، وسافرت – مع الزمن، عبر السِّيَر – أدقِّق وأسجِّل:

– رأيت القعنبي وهو يتعرض لموكب الإمام شعبة يتهدده إن لم يحدثه بحديث فسوف يقتله، وسمعت قول شعبة له: ألا تستحي!، فلم يتركه القعنبي حتى حدثه فاختار له حديث: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت) فحولت الكلمة القعنبي من سكّير عربيد إلى إمام محدّث كبير، بل كان أعظم رواة موطأ الإمام مالك.

– نظرت إلى الكسائي وهو يتردد على مجلس علم في المسجد، وسمعت المعلم يسأل طلابه في سؤال، فأحب الكسائي أن يجيب فنظر طلاب الحلقة إليه متأففين يقولون: وهل للخياطين بذلك اهتمام؟

فحوّلته الكلمة من خيّاط إلى إمام، بل صار أحد أئمة القراءات واللغة المعدودين في الدنيا.

– لمحتُ ابنَ حزم وهو يدخل المسجد بالأندلس قبيل صلاة المغرب وقد آذنت الشمس بالمغيب، فأراد أن يصلّي ركعتين تحية للمسجد، فقال له أحدهم: اجلس يا جاهل؛ فلا صلاة في وقت الكراهة، فإذا ابن حزم يلوم نفسه على عدم الفقه فيتعهدها من يومها بالعلم، حتى إنه ليناظر أبا الوليد الباجي إمام المالكية في الأندلس فيغلبه في المناظرة، وذلك بعد حادثة المسجد بسنين معدودة، وابن حزم بعد ذلك هو ابن حزم، من ذا في الدنيا كلها لم يسمع به؟!

– وطفت بدمشق أتأمل حلقات العلم في بلاد الشام فصدفني حائك عامّيٌّ يقال له "محمد إسماعيل" وكان يتردد على مجالس العلم، فإذا هو بعد بضع سنين، يحتكر الفتوى في بلده وينصرف الناس إليه مهملين المفتي الرسمي حتى اغتاظ آل العمادي – وهم أهل المفتى الرسمي – وجعلوا يستهزئون بمحمد إسماعيل الحائك، فبينما هو يمر بدارهم يومًا، على أتان له بيضاء، وجد على الباب أخاً للمفتي، فسلم، ورد عليه هذا الأخ السلام ثم قال ساخراً: إلى أين يا شيخ؟ أذاهبٌ أنت إلى "إسطنبول" لتأتي بولاية الإفتاء؟! وضحك وضحك من حوله من الشباب، أما الشيخ فلم يزد على أن قال: إن شاء الله، فماذا فعل؟ استمر في طريقه وهو راكب الأتان، حتى إذا ابتعد عنهم دار في الأزقة حتى عاد إلى داره، فودّع أهله وأعطاهم نفقة، وسافر متجهاً إلى "اسطنبول"، وما زال يفارق بلداً ويستقبل بلداً حتى دخل القسطنطينية، وما هي إلا أيام معدودات حتى عاد الحائك العامّيّ يحمل رتبة الإفتاء، ومعها ألف دينار، جائزة له، في قصّة عجيبة طريفة هي من قدر الله عز وجل.

وغيرها من التأمّلات مع كثير من الشخصيات؛ تجدونها في هذه الصفحات.

(١)

عالِمٌ بين محنتين؛ رافعةٌ وقاتلةٌ

في الأهواز الحبيبة، من أرض فارس، نشأ صاحبنا، فما أن شبَّ حتى انتقل به أبوه إلى البصرة وهي يومئذ مركز العلوم ومصنع العلماء. [١]

كان صاحبنا شابًّا حسنًا جميلاً، حتى إن الناس اشتقُّوا له لقبًا من حسنه وجماله، عرفه به الناس ونسوا اسمه.

عمرو بن عثمان بن قَنْبَر، ذلك اسمه؛ وأما لقبه فهو (سيبوَيْهِ) ومعنى هذا اللقب – كما يقول إبراهيم الحربي –: سُمِّي سيبويه؛ لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين، بديع الحسن.[٢]

وكان سيبويه مفرط الذكاء، يُعرف ذلك فيه صغيرًا، ولذلك تعلق من كل علم بسبب، وضرب بسهم في كل أدب مع حداثة سنِّه؛ فقد انطلق يصحب المحدِّثين والفقهاء حيث ميله ومرادُه، فكان يستملي على حمَّاد بن سلمة في حلقته ليكتب الحديث ويرويه، لكن شاء الله أن يكون سيبويه لغير ما طلب وما أراد؛ ففي يوم من الأيام سأل التلميذ شيخه حماد بن سلمة فقال له: أحدَّثك هشام بن عروة عن أبيه في رجلٍ رعُف في الصلاة، بضم العين؟

فقال له حمَّاد: أخطأت؛ إنما هو رعَف بفتح العين.

فانصرف سيبويه إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ النُّحاة، فذكر له ما كان بينه وبين حماد، فقال له الخليل: صدق حمَّاد! ومثل حماد يقول هذا، ورعُف – بضم العين – لغة ضعيفة. [٣]

وفي ذلك لفتة لنظر التلميذ الناشئ إلى العناية بعلم التصريف ليضبط بناء الكلمة، ثم يتكرَّر مثل هذا الموقف مرة أخرى، فبينما هو يستملي على حمَّاد قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما أحد من أصحابي

---

(١) انظر في ترجمته: "سير أعلام النبلاء" (٨ / ٣٥١) ؛ للذهبي، و"تهذيب الكمال" (٨ / ٣٣٢) ؛ للمزي، وقد استوعبها العلامة عبدالسلام هارون في مقدمة "الكتاب" لسيبويه.

(٢) سير أعلام النبلاء (٨ / ٣٥١).

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٤ / ٨٤) ؛ للمقري.

إلا وقد أخذتُ عليه ليس أبا الدرداء)) [٤]، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء بالرفع، وقد خمنه اسم ليس، فقال له حمَّاد – وكان شديد الأخذ –: "لحنتَ يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبتَ، وإنما (ليس) ها هنا استثناء"، فكان أن أَنِف سيبويه من ذلك وقد أخذ قراره، فقال: لا جرم لأطلبَنَّ علمًا لا تلحنني فيه أبدًا، فطلب النحو، ولزم الخليل فبرع[٥].

وفي رواية مجالس العلماء للزجاجي أنه لزم مجلس الأخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين.

وخبر آخر يرويه حماد بن سلمة أنه جاء إليه سيبويه مع قوم يكتبون شيئًا من الحديث، قال حماد: "فكان فيما أمليتُ ذكر الصفا، فقلت: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا"[٦]، وكان هو الذي يستملي فقال: "صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفاء"، فقلت: يا فارسي، لا تقل الصفاء؛ لأن الصفا مقصور.

فلما فرغ من مجلسه كسر القلم وقال: لا أكتب شيئًا حتى أُحكِمَ العربية[٧].

وهذه الحوادث وما كان في معناها هي التي حدت بسيبويه إلى العناية بتعلم النحو.

فدفع حماد بسيبويه إلى حذق النحو بسبب تلحينه إياه في هذه المسائل، فكان بذلك ممن اشترك في صنع سيبويه الإمام النحوي[٨].

وكأني ألمس في حكاية حماد لهذه القصة أنه كان يذكرها بعدما علا ذِكرُ سيبويه وارتفع شأنه واستبانت في النحو إمامته، ففيها من أمارات الفخر والاعتزاز من الأستاذ بالتلميذ الكثير، كأنه يريد أن يقول: إن هذا التفوق مِن هذا اللحن.

---

[٤] أخرجه الخطيب في الجامع برقم (١٢٠٢)، في هذه القصة أيضًا، ولا يُعرف عند المحدِّثين، أما المعروف عندهم: عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ما من أحد من أصحابي إلا لو شئت لأخذت عليه في خلقه ليس أبا عبيدة بن الجراح)) ؛ أخرجه الحاكم في المستدرك (٣ / ٢٦٦)، مرسلاً ووثَّق رجاله، ووافقه الحافظ في الإصابة، لكن ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٩ / ٤٥٤).

[٥] معجم الأدباء (٣ / ١١٩٩) لياقوت الحموي.

[٦] انظر – مثلاً – حديث البخاري (٤٩٧١)، عن ابن عباس.

[٧] مجالس العلماء (١٥٤).

[٨] نفسه.

وتلك هي المحنة الأولى؛ الرافعة.

لقد تخرج سيبويه على الخليل بن أحمد ولازمه كظلِّه، فاستقى علمَه كله فبرع حتى صار إمامَ النُّحاة، وحُجَّةَ العرب، وساد أهل العصر، ومن وراءه، وكان أول من بسط علم النحو، وألّف فيه كتابًا لا يُدرَك شأوه فيه صار حجة العربية ودستورها.

وهكذا؛ لا يُذكَر علماءُ النحو إلا وُضع سيبويه أمامَهم حتى قالوا: "كان سيبويه غاية الخلق"، ولا تُذكر كتبُ النحو إلا كان "الكتابُ" الذي ألفه سيبويه إمامَهم، حتى سموه: "قرآن النحو"، ومن طريف ما يروى أن أحد نحاة الأندلس – وهو عبدالله بن محمد بن عيسى الأسلمي – كان يَختم كتاب سيبويه في كل ١٥ يومًا؛ كأنما يتلوه تلاوة القرآن[٩].

وأما المِحنة التي قتلته فحدثت له في آخر حياته، وكان سيبويه قد تربَّع على عرش سلطان النحو وكان ممن يقاربه في هذا العلم الإمام الكسائي إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القراء السبعة؛ ولئن كان البصريون لا يقدِّمون أحدًا على سيبويه ولا يرفعون رأي أحد فوق رأيه، فلقد كان الكوفيون يفعلون ذلك أيضًا مع أبي الحسن الكسائي، بل لقد كانت المدرستان في ذلك الوقت – وظلَّتا بعد ذلك – تتنازعان الرأي في اتجاهين مختلفين في غالب مسائل النحو والتصريف – وكان أن أحبَّ سيبويه أن يقارن علمَه بعلم الكسائي وتطلَّع إلى مناظرته، وقد جرت هذه المناظرة في مجلس يحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد، وهذه المناظرة هي أشهر المناظرات النحوية على الإطلاق، وقد عرفت بـ "المسألة الزنبورية"؛ إذ لم تنل مناظرة من مناظرات النحاة قديمًا ما حظِيت به هذه المناظرة من اهتمام الدارسين الأقدمين والمحدَثين، وتكمن أهميتها في أنها تمَّت بين عالِمين يمثّلان مذهبين نحويين مختلفين هما: سيبويه والكسائي، صار أَولهما إمام نحاة البصرة، وصار الثاني شيخ نحاة الكوفة[١٠].

وحول هذه المسألة حيكت روايات ونُسجت أقاويل.

---

[٩] الوافي بالوفيات (٥ / ٤٨٥)، الصفدي.

[١٠] المسألة الزنبورية وأوليات الخلاف النحوي، المقدمة، الدكتور هاني عبدالكريم فخري.

وقد ذكرها ابن الأنباري في كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف[١١] قال: لما قدم سيبويه على البرامكة طلب أن يُجمع بينه وبين الكسائي للمُناظَرة؛ فحضر سيبويه في مجلس يحيى بن خالد وعنده ولداه جعفر والفضل ومن حضر بحضورهم من الأكابر، فأقبل خلف الأحمر على سيبويه قبل حضور الكسائي فسأله عن مسألة فأجابه سيبويه، فقال له الأحمر: أخطأتَ! ثم سأله عن ثانية، فأجابه فيها، فقال له: أخطأت! ثم سأله عن ثالثة، فأجابه فيها، فقال له: أخطأت! فقال له سيبويه: هذا سوء أدب.

قال الفراء: فأقبلتُ عليه، وقلتُ: إن في هذا الرجل عجلةً وحدة، ولكن ما تقول فيمن قال: هؤلاء أبون، ومررت بأبين؟ كيف تقول على مثال ذلك من: وأيت أويت؟ فقدر فأخطأ! فقلت: أعد النظر، فقدر فأخطأ! فقلت: أعد النظر، فقدر فأخطأ! ثلاثَ مرات يجيب ولا يصيب، فلما كثر ذلك عليه قال: لا أكلمكما أو يَحضر صاحبُكما حتى أناظره.

وكأنما فعل خلف والفراء ذلك ليُخضدا شوكة سيبويه قبل لقائه للكسائي أستاذهما!

قال فحضر (الكسائي)، فأقبل على (سيبويه) فقال: تسألني أو أسألك؟ فقال: بل تسألني أنت، فأقبل عليه الكسائي فقال: كيف تقول: "كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي أو فإذا هو إياها"، فقال سيبويه: "فإذا هو هي، ولا يجوز النصب". فقال له الكسائي: "لحنتَ".

ثم سأله عن مسائل من هذا النحو نحو: خرجت فإذا عبدالله القائمُ أو القائمَ؟ فقال سيبويه في ذلك بالرفع دون النصب، فقال الكسائي ليس هذا من كلام العرب، والعرب ترفع ذلك كله وتنصبه، فدفع ذلك سيبويه ولم يُجِز فيه النصب.

فقال له يحيى بن خالد: "قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلدَيكما فمن ذا يَحكم بينكما؟"

فقال له الكسائي: هذه العرب ببابك قد اجتمعت من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المصرَين، وسمع أهل الكوفة والبصرة منهم فيحضرون ويُسألون.

فقال له يحيى وجعفر: قد أنصفتَ، وأمر بإحضارهم فدخلوا وفيهم أبو فقعس وأبو زياد وأبو الجراح وأبو ثروان فسُئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه فوافقوا الكسائي وقالوا بقوله، فأقبل يحيى بن سيبويه فقال: قد تسمع.

---

[١١] الإنصاف في مسائل الخلاف (٢ / ٧٠٣)، ابن الأنباري.

وأقبل الكسائي على يحيى وقال: أصلح الله الوزير، إنه وفد عليك من بلده مؤمِّلاً فإن رأيتَ ألا ترده خائبًا، فأمر له بعشرة آلف درهم فخرج وتوجه نحو فارس وأقام هناك ولم يعدْ إلى البصرة.[١٢]

فهل حقًّا غُلب سيبويه في هذه المناظرة وكان الظفر للكسائي؟

إننا إلى اليوم ندرس علم النحو والصرف ونقرأ اختلاف البصريين والكوفيين في كل مسألة حتى إنا لنعجَب لأنهما لا يتفقان! كأنما اتفقا على ألا يتفقا!

ثم يزداد عجبنا أحيانًا ويصل إلى حدّ الانبهار حين نعرف أن رأي الكوفيّين رجح على رأي البصريين؛ ذلك لأنه لا يحدث إلا نادرًا جدًّا ربما مرة أو مرتين أو ثلاثًا – في كثير جدًّا من المسائل.

وعمومًا فغالبًا ما يشعر الدارس أن النزعة الخلافية بين النحويين تذهب بهم – في كثير من الأحايين – إلى الإجحاف دون الإنصاف؛ فما بين دواعي شخصية وعصبية وسياسية ومنهجية جرى كثير من هذا الخلاف!

وقد فعلوها مع سيبويه؛ تحاملوا عليه وكان الحق معه – مطلقًا أو على الأقل من وجهة نظر بصرية – وتعصبوا للكسائي، ولم يكن الحق في جانبه؛ ذلك أن الحسمَ في تصحيحِ رأي العالمين كانوا هُمْ أعراب الحطمة الذين رَجَّحُوا رأيَ الكسائي وهم الذين كان الكسائي يَأْخُذُ عَنْهُمْ وكانَ البصريون لا يعتدون بلغتهم، كما أَنهم قَدْ عَلِمُوا أَن الكسائي في حمى الرشيد.

شواهد وأدلة كثيرة تدل على أن ذلك الإخفاق لم يكن إخفاقًا علميًّا وإنما كان إخفاق مظاهرة علمية ليس لها وجه من الحق[١٣]، بل من العلماء من يرى أن السياسةَ تَدَخَّلَتْ في النتيجةِ التي آلَتْ إليها المناظرة وهم كُثُر.[١٤]

---

[١٢] أكثر الكتب إلمامًا بهذه المسألة تجده كتاب (المسألة الزنبورية وأوليات الخلاف النحوي) للدكتور هاني عبدالكريم فخري الأستاذ المساعد في جامعة صنعاء، كلية اللغات.

[١٣] كتاب سيبويه، المقدمة (ص: ١٨)، عبدالسلام هارون.

[١٤] المسألة الزنبورية وأوليات الخلاف النحوي، المقدمة.

ولعلنا نفاجأ حين نعلم أن الكسائي ذهب بعد وفاة سيبويه إلى الأخفش – تلميذ سيبويه الكبير وراوي كتابه – ليقرأ عليه الكتاب فقرأه عليه وأوصاه أن يجعل ذلك سرًّا بينهما وألا يفشيه لأحد، وبذل له ٢٠٠ دينار!

وكذلك قرأه الفراء، بل إن الفراء مات وتحت وسادته كتاب سيبويه! [١٥] والإجماع منعقدٌ بيْنَ الدارسين قديمًا وحديثًا أن سيبويه ماتَ غمًّا وكمدًا تأثرًا نتيجةَ هذه المناظرة، إذًا لم تكن وفاة سيبويه طبيعية؛ فقد خرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه، وقصد بلاد فارس ولم يعرج على البصرة، وأقام هنالك مدةً إلى أن مات كمدًا، ويُروى أنه ذَرِبتْ معدته فمات.

وفي مكان وفاته والسنة التي مات بها خلافٌ عريض، والراجح من الأقوال أن ذلك كان في سنة ثمانين ومائة من الهجرة. [١٦]

لقد قاد سيبويه طموحه إلى أن ينتقل إلى بغداد وأن يناظر شيخ نُحاتها (الكسائي) فقادَه طموحُهُ هذا إلى الموت.

ما بين سنة (١٤٠ و١٨٠ هـ) عاش هذا الإمام الكبير الذي لم تر الدنيا – في علمه – مثله، فتعجب لأن هذا الإمام تُوُفِّي في ريعان شبابه حتى قيل: عاش اثنتين وثلاثين سنة، وقيل: نحو الأربعين!

وفي حياة سيبويه دروس وعبر لطلاب العلم لا تَخفى، لعل أهمها العناية بباب من العلوم تخصصًا وتحريرًا وتدقيقًا وإتقانًا وتجويدًا، فإنه من لزم بابًا من العلم وانقطع له فتح له، رحم الله إمام العربية وسلطان النحو أبا بشر، وألحقنا به على خير.

---

[١٥] كتاب سيبويه، المقدمة (ص: ٣٥)، عبدالسلام هارون.

[١٦] سير أعلام النبلاء (٨ / ٣٥٢).

(٢)

حجة الإسلام الغزّالي ألهمَه اللصوصُ مفتاحَ العلم!

عشتُ خلال هذه الرحلة مع علماءَ ودعاةٍ في قلب التاريخ، ومع أمثالهم في قلب الحدَث، اجتزتُ بحورَ الزمن إلى أبي حامد الغزالي، أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري، وصحبته في السفر من طوس إلى (جرجان)؛ لسماع دروس الإمام "أبو نصر الإسماعيلي"، وفي أثناء عودتنا إلى بلدته (طوس) قطع اللصوصُ علينا الطريق، وأخذوا من (أبي حامد) مخلته التي فيها كتبه وكراريسه؛ ظنًّا منهم أن فيها نقودًا ومتاعًا، وساروا في طريقهم، فتبعهم (أبو حامد) وأخذ يلحُّ عليهم أن يعطوه أوراقه وكتبه التي هاجر من أجلها ومعرفة ما فيها؛ وقال لهم: خريطتي لا تُفيدكم بشيء أعيدوها إلي.

فقال له رئيسهم: وماذا في الخريطة؟ قال: قلتُ: كتُبي: علوم درستها وهي محفوظة في هذه الخريطة.

فضحك كبير اللصوص وقال له: كيف تزعم أنك عرفت عِلمها وعندما أخذناها منك أصبحتَ لا تعلم شيئًا وبقيتَ بلا علم؟!

ولكنه أشفق عليه آخرًا وسلّمه الكتب.

ثم أطلقوا سراحهم..

يقول الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظتُ جميع ما علقتُه وصرت بحيث لو قطع عليَّ الطريق لم أتجرد من علمي.

وكان هذا الدرس عظيم الأثر في حياة أبي حامد؛ فبعد هذه الحادثة صار الغزالي يستظهر كل ما يقع تحت يده حتى لا تصبح له حاجة إليه إذا ما تناولته أيدي العفاء، وعندما وصل إلى "طوس" مكث ثلاث سنوات يحفظ ما كتب في هذه الأوراق، حتى لا يتعرض علمه للضياع مرة أخرى.

وبهذا كان للأمَّة عالم مِن فحول العلماء اتَّفق كثير من علماء الأمة على تلقيبِه بحجة الإسلام، والغزالي – الذي عاش فيما بين ٤٥٠هـ و٥٠٥هـ فعمره كان بين الخمسين والستين – أنتج لأمته مؤلفات عظيمة كثيرة تزيد على أربعمائة مؤلف، على رأسها كتابه الفخم "إحياء علوم الدين"، "الوسيط في الفقه الشافعي"، و"تهافت الفلاسفة"، و"المستصفى في أصول الفقه"، ومع غزارة إنتاج الغزالي هذا، فإن أسلوبه يتسم بالعبارة السهلة، والبعد عن التعقيد.

والبركة في علمه تعود إلى (صفعة من لصٍّ)!

ومن العجائب التي يذكرها الغزالي أيضًا عن حادثة قطاع الطريق هذه أنه فيما هو جالس ينظر إلى اللصوص قام أحدهم فتوضَّأ وصلى، فعجب منه أبو حامد وقال له: تُصلي وأنت قاطع طريق المسلمين؟ فقال له: صِلة بيني وبين ربي أحافظ عليها.

وبعد سنين عددًا حجَّ الغزالي إلى بيت الله الحرام، وفي أثناء الطواف لقي صاحبه قاطعَ الطريق وسأله: أأنت ذلك الرجل؟ فقال: أما قلت لك: الصلاة صلة بيني وبين ربي؟ فقد تبتُ والحمد لله!

لا تقطع الصلة التي بينك وبين الله ولو كانت شَعرة. [١٧]

وفي حياة الغزالي – رحمه الله – عِبرٌ أشير إلى واحدة منها تتعلق بقصته هذه:

فالكتابة قيد للعلم.. نعم، لكن لا ينبغي لطالب العلم أن يكتفي بالكتابة، فقط بل لا بد له من قسط في الحفظ وفير، وقد جاء في الشرع الوصية بحفظ العلم قرآنًا وسنَّة، فأما القرآن ففي الحديث: ((مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال)) [١٨]، وكان جبريل يراجع حفظ النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن كل سنة مرة، وقبل وفاته راجع معه الحفظ مرتين[١٩].

---

[١٧] انظر في سيرة الغزالي طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، السبكي، سير اعلام النبلاء، ج ١٣، الذهبي، تاريخ دمشق، ابن عساكر، مؤلّفات الغزالي، ١٩٧٧، عبد الرحمن بدوي، الغزالي ورحلة الحياة إلى اليقين، د. حسن عيسى عبد الظاهر.

[١٨] رواه مسلم (١٣٤٢).

[١٩] رواه البخاري (٤٧١١).

وأما السنَّة، فقد بوَّب البخاري في كتاب العلم بابًا بعنوان: تحريض النبي صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويُخبروا من وراءهم، وجاء فيه حديث النبي أنه علمهم أركان الإسلام ونهاهم عن أشياء ثم قال لهم: ((احفظوهنَّ وأخبروا بهنَّ من وراءكم)) [٢٠]، ولهذا تواترت كلمات الأئمة على الوصية بالحفظ؛ فمن ذلك أن الخليل بن أحمد – رحمه الله – قال مبيِّنًا أهمية الحفظ لطالب العلم: الاحتفاظ بما في صدرك أولى من حفظ ما في كتابك، واجعل كتابك رأس مالك، وما في صدرك للنفقة.

وقال عبدالرزاق – رحمه الله –: كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فلا تعدَّه علمًا؛ لأن الصفحات والكتب التي فيها ذكر الله لا يُمكن أن تدخل الحمام، لكن الحفظ الذي يكون في صدر الحافظ يذهب معه في كل مكان.

وقال هبة الله البغدادي:

علمي معي أينما يَمَّمْتُ يَتبعُني.. بَطني وعاء له لا بطن صندوقِ

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي.. أو كنت في السوق كان العلم في السوقِ

وقال عبيدالله الصيرفي:

ليس بعلم ما حوى القِمطرُ.. ما العلم إلا ما حواه الصدرُ[٢١]

---

[٢٠] رواه البخاري (٨٧).

[٢١] طالب العلم والحفظ؛ لفضيلة الشيخ محمد المنجد.

(٣)

أبو حنيفة وتوجيه امرأة!

مَن؟! أبو حنيفة! الذي قيل فيه: الناس عيالٌ في الفقه على أبي حنيفة! نعم، إنه هو، الرجل الذي لم يَدرُس أحدٌ فقهَه ولم يتنسَّمْ رائحةَ عقله إلا حَمِد الله أن جعَلَ في الأمة مثلَه، فيكون مِن جملة تسابيحه بعد معرفتِه: الحمد لله الذي خلَقَ أبا حنيفة!

إي، هو! وأكبر من ذلك!

كان أبو حنيفة رحمه الله رجلاً كالناس، يَشغَله همُّ حياته ودنياه، مشغولاً بتجارته الرَّائجة الرَّابحة بين أثرياء القوم وعِلية الناس، ولم يكن له في بداية حياته شُغِل بالعلم، حتى إنه وُلد سنة ثمانين في حياة صِغار الصحابة، ورأى أنسَ بن مالك لما قَدِم عليهم الكوفةَ، لكنه لم يَثبُت له حرفٌ عن أحدٍ منهم، ولا عن أنسٍ رضي الله عنه، ثم إذا به يتحوَّل إلى العلم والفقه، والدراسة والتلقِّي، فرَوى عن عطاءِ بن أبي رَباح، وعن الشعبيِّ، لكن قد فاته أصحابُ النبي عليه الصلاة والسلام فلم يأخذ عنهم حرفًا!

فكيف صار في الدين: "الإمامَ، فقيهَ الملَّة، عالم العراق" كما نعتَه بذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء؟! (٢٢)

يحكي لنا أبو حنيفة رحمه الله عن ذلك بطريقته الشائقة الماتعة فيقول:

خدعَتني امرأة، وفقَّهَتني امرأة، وزهَّدَتني امرأة!

أما الأولى: فكنتُ مجتازًا فأشارت إليَّ امرأةٌ إلى شيء مطروحٍ في الطريق فتوهَّمتُ أنها خرساء، وأن الشيء لها، فلما رفعتُه إليها قالت: احفَظه حتى تسلِّمَه لصاحبه.

وأما الثانية: فسألتني امرأةٌ عن مسألة في الحيض، فلم أعرفها، فقالت قولاً تعلَّمتُ الفقه من أجله.

---

(٢٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩١)، للذهبي.

وأما الثالثة: فمررتُ ببعض الطرقات، فقالت امرأة: هذا الذي يصلِّي الفجر بوضوء العشاء، فتعمدتُ ذلك حتى صار دأَبي. [٢٣]

فلله هي أو هنَّ، ولله هو!

حتى ليقول الذهبي عن خاتمته السعيدة: "عُنِي بطلب الآثار، وارتحَل في ذلك، وأمَّا الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهى، والناسُ عليه عيالٌ في ذلك".

ويقول عنه يحيى بن مَعين إمام الجَرح والتعديل: كان أبو حنيفة ثقةً لا يحدِّث بالحديث إلا بما يحفظه، ولا يحدِّث بما لا يَحفظ... ولم يُتَّهم بالكذب... ولقد ضربَه ابنُ هُبيرة على القضاء، فأبى أن يكون قاضيًا.

لقد كانت الصفعات الثلاثُ مؤثِّرةً في حياة أبي حنيفة أيَّما تأثير! فكان في العلم على ما حكى هؤلاء الفحول، وكان تَوقُّد ذهنه لا يُصدَّق، حتى صار كما قال فيه: "ألمعيٌّ ذكي، لا يُخطئ في تقدير الرجال"، وقائل ذلك هو الإمام مالك؛ كما ينقل ذلك الشافعي تلميذه، يقول: قيل لمالكٍ: هل رأيتَ أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيتُ رجلاً لو كلَّمَك في هذه السارية أن يجعَلها ذهبًا لقام بحجَّتِه".

وأما عن العبادة فحسبُك فيه قولُ أسد بن عمرو: "إن أبا حنيفة رحمه الله صلى العشاء والصبح بوضوءٍ أربعين سنة".

وشهادةُ القاضي أبي يوسف؛ قال: "بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة، إذ سمعتُ رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفةَ، لا ينام الليل، فقال أبو حنيفة: والله لا يُتحَدَّث عني بما لم أفعل! فكان يُحيي الليل صلاة وتضرعًا ودعاء".

يقول الذهبيُّ: وقد رُوي من وجهين أن أبا حنيفة قرأ القرآن كلَّه في ركعة.

---

[٢٣] الأشباه والنظائر (٣٦٥) لابن نجيم.

وقد كان أبو حنيفة ممَّن ثبَت في مِحنة خلق القرآن، فلم يُجب السلطان وكان قوله: "من قال: القرآن مخلوق، فهو كافر".

قال الذهبي: قال عليُّ بن الحسن الكراعي: قال أبو يوسف: ناظرتُ أبا حنيفة ستَّةَ أشهر، فاتفق رأينا على أنَّ من قال: القرآن مخلوق، فهو كافر".

وعن محمد بن سابق قال: "سألت أبا يوسف فقلتُ: أكان أبو حنيفة يقول: القرآن مخلوق؟ قال: معاذ الله، ولا أنا أقوله".

وما ورد في كتب "التأريخ" أن أبا حنيفة كان يقول: "القرآن مخلوق"، فيقول عنها العلامة الألبانيُّ رحمه الله: "دقَّقتُ النظر في بعضها فوجدتُه لا يخلو من قادح، ولعلَّ سائرها كذلك؛ لا سيما وقد روى الخطيبُ عن الإمام أحمد أنه قال: لم يصحَّ عندنا أن أبا حنيفة كان يقول: "القرآن مخلوق".[٢٤]

وهذا هو اللائق بالإمام أبي حنيفةَ وعِلمِه، فرحمه الله ورفَع درجته في علِّيين. [٢٥]

وبعد، فهذا أثرُ صفعةٍ صيَّرَت رجلاً عاديًّا:

- فقيهًا.
- عابدًا.
- ألمعِيًّا.

فمَن لنا بصفعةٍ كهذه مضمونةِ النتيجة؟!

---

[٢٤] "مختصر العلو للعلي الغفار"، الحافظ شمس الدين الذهبي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، (١٥٦).

[٢٥] طالع في ترجمة أبي حنيفة (أبو حنيفة: حياته وعصره – آراؤه وفقهه؛ للشيخ محمد أبو زهرة، أبو حنيفة النعمان – إمام الأئمة الفقهاء، وهبي سليمان غاوجي، سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٦ /٣٩٠).

وفي سيرة النعمان فوائدُ وفرائد جمَّة، من أعظمها أنّه رحمهُ الله لم يستنكف أن يحكي ذلكَ عن نفسهِ أما بعضنا فيوهم الناس أنهُ ولدَ عالماً!!.

(٤)

قمر القرن الرابع عشر الهجري

مثلما يولد الصبح من رحم الليل، وُلِدَ هذا الكوكب الدريُّ في ظلمة من فوقها ظلمات!

كان ذلك في مطلع القرن الرابع عشر الهجري في مدينة أشقودرة، في أسرة فقيرة متديِّنة، نشأ محمد – وذلك اسم صاحبنا – حيث كان يغلب على بلاده الانحراف نحو الحضارة الغربية العلمانية بشدة لا تُقاوَم، مما اضطر رب الأسرة والده الشيخ "نوح" أن ينجو بأهله وأبنائه من هذه الفتن، فاختار بلاد الشام ليعيش فيها، وكان أن قطن سوريا وأقام فيها، وهكذا بدأت حياة (محمد) بتقلبات مريرة لم تكن الأخيرة في حياة الصبي اليافع، بل تدافعت عليه التقلبات بين شدة حياة، وقلة ذات اليد، وضيق أفق الناس، وسجنٍ لأجل الدعوة، وعُدوانِ متعصِّبي المذاهب ومشايخ الصوفية والخرافيين والمبتدعة.

لكن أعظم هذه التقلبات أثرًا في حياته، والذي كان بمثابة الصفعة التي صنعت منه قمر زمانه وأزمنة مديدة بعده لن تزال بالخير تذكره إن شاء الله، قد بدت من اليوم آثارها: طردُه من بيت والده.

نعم، فقلد كان الشيخ الشابُّ حرًّا لا يتقيد بمذهب من المذاهب، رغم أنه درس المذهب الحنفي على والده وشيخه "سعيد برهاني"، غير أنه كان يأخذ من المذهب ما وافق الدليل ويرد ما سواه، وكان اطَّلع على شيء من علم الحديث، وتفتَّحت نفسه له، وأقبل عليه، ومن ثم كثرت المناقشات بينه وبين والده، لا سيما وأنهما متجاوران في العمل؛ فقد كان "محمد" يعمل مع والده في المحل، وكان لديهما من الفترات الطويلة فراغ، فكان يحدث بينهما نقاش يتحول كثيرًا إلى صدام؛ إذ كان الوالد متعصبًا للمذهب لا يُغادره، يقول محمد عن ذلك: فإذا ضاقَ بالبحث ذرعًا – وأنا شابٌّ طويل النفَس، وهو كان كهلاً بل شيخًا، ولم يكن عنده صبر على هذا – إذا ضاق بالبحث ذرعًا ولم يجد حجةً يرد بها كلامي، فكان يقول كلمته الدارجة: أنت تعلَّمتَ الحديثَ، وعلم الحديث صنعة المفاليس!

ولقد بلغ السَّيل بينهما زباه حينما جمع الابن الشاب كتيبًا صغيرًا تحدث فيه حول عدم جواز الصلاة في المسجد الأموي؛ لأن به قبرًا، والصلاة في المساجد التي فيها قبور لا تجوز، وزاد الطين بلَّة قصة صلاة الأحناف!

وقد كانت المساجد في هذا الوقت – ويا للعجب – فيها محاريب بعدد مذاهب أهلها الموجودين بها، وكان المسجد المجاور لبيت الشيخ "نوح" به شافعية وأحناف، ومذهباهما لا يَجتمعان على صلاة الفجر؛ كان الشافعية يصلون أولاً ثم يَعقبهم الأحناف بعدها! وقد حافظ الابن الشابُّ على صلاة الفجر خلف الشافعية؛ ليقينه أن الجماعة الأولى هي جماعة المسلمين، ولا صحة لانتظار فريق منهم انتهاء الصلاة الأولى ليُقيموا جماعة ثانية بعدها!

وثارت ثائرة الوالد "نوح" على ابنه "محمد"، حتى كان من قوله له: "إن هذا الوضع القائم الآن لا يستقيم، أنت تجدُّ في مخالفتي، وأنا لا أطيق هذه المخالفة؛ فإمَّا أن توافق، وإمَّا أن تفارق"!

فقال الابن لوالده: أمهلني ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أيام قال: أنا لا أستطيع أن أخالف ما أعتقد أنه دين، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أُزعجك وأن أبقى معك، فأنا أختار المفارَقة.

وفعلاً فارق الشاب – الذي لم يتجاوز العشرين – الدار، وقد أعطاه أبوه يومَ فارقه – أعطاه وهو خارج من الدار – خمسًا وعشرين ليرة سورية فقط، وخرج من داره لا يملك دينارًا ولا درهمًا، يعمل ليكتسِبَ قوته بنفسه، ويجدُّ مع ذلك ليتعلم ويقرأ، وقد ساعدته مهنته "الساعاتي" على أن توفر له وقتًا كبيرًا للاطِّلاع، وقد كان الشاب متيَّمًا بالعلم، شغوفًا بالقراءة واقتناء الكتب، حتى إنه من شدَّة العنت والفقر الذي عاشه كان لا يَملك ورقة يَشتريها ليُسوِّدها بما مَنَّ الله تعالى عليه من علمٍ فيها، فكان يَطوف في الشوارع والأزقة يبحث عن الأوراق الساقطة فيها مِن هنا وهناك ليكتب على ظهرها؛ وذلك لأن وجه الورقة يكون عادة مكتوبًا فيه إمَّا دعوة لافتتاح معرض، أو حفلة زواج، أو دعاية لمصنوعة من المصنوعات، وكان يشتري الأوراق (سقط المتاع) بالوزن لرخصِه، يكتب عليها ويذاكر ويؤلِّف.

حتى صار الشاب محمد ناصر الدين الألباني أهلاً لقيادة الكوكب الأرضي في هذا المجال: "علوم الحديث" بلا منافس، فلا يُذكران إلا مقترنين، وله فيه أكثر من ٣٠٠ مؤلَّف، بين تأليف وتخريج وتحقيق وتعليق.

ومُنح الشيخ جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية لعام ١٤١٩ هـ - الموافق ١٩٩٩، وموضوعها: "الجهود العلمية التي عنيت بالحديث النبوي تحقيقًا وتخريجًا ودراسة"؛ لمحمد ناصر الدين الألباني، تقديرًا لجهوده القيمة في خدمة الحديث النبوي تخريجًا وتحقيقًا ودراسة، وذلك في كتبه التي تربو على المائة.

ويرى المنصفون الشيخ أحد مجدِّدي الإسلام في زمانه.

يقول الفقيه الورع المنصف "عبدالعزيز بن باز" - رحمه الله تعالى -: "ما رأيتُ تحت أديم السماء عالمًا بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني"، وسُئل سماحته عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها))، فسُئل: من مجدد هذا القرن؟ فقال - رحمه الله -: "الشيخ محمد ناصر الدين الألباني هو مجدد هذا العصر في ظنِّي، والله أعلم".

وهذا إن شاء الله تعالى مما لا ينكره منصف يستقرئ واقع هذا العلم، وحياة المهتمين به في القرن المنصرم، وسنوات القرن الحالي.

وفي سيرة العلامة الألباني من الدروس والعِبَر فوائد كثيرة لطالب العلم والهدى، أَولاها بالتمعُّن والتدبُّر تلك الحرية التي يَنبغي أن يتمتَّع بها طالب العلم، فلا يكون إمعة؛ أن يُحسن إذا الناسُ أحسَنوا، ويُسيء إذا الناس أساؤوا، بل يكون معهم فيما يُحسنون، ويتجنَّب إساءاتهم فيما يُسيئون، ويَبني لنفسه شخصية علمية

حرَّة تبحَث عن الحق وتتبعه، ولو كانت هي في المقام وحدها، ما دامت تَستوثِق للحق الذي بين يديها؛ فطالب العلم حرٌّ لا يَحرفه التيار العام، بل هو إن ملك الحق واستيقن به يصادم لأجله التيار. [٢٦]

[٢٦] اقرأ في سيرة العلامة الألباني – رحمه الله –: "حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه"؛ تأليف الأستاذ محمد بن إبراهيم الشيباني، و"الثمر الداني في الذبِّ عن الألباني"؛ للشيخ أبي إسحاق الحويني، "ثبت مؤلفات الألباني"؛ تأليف عبدالله بن محمد الشمراني، "أحداث مثيرة في حياة الألباني"؛ للشيخ محمد صالح المنجد، وغيرها كثير.

(٥)

خياط أميٌّ هو المفتي!

طفتُ بخيالي في مدينة دمشق العريقة – حفظها الله – أتأمل حلقات العلم في بلاد الشام، فصادفني حائك عامي يُقال له: "محمد إسماعيل" وكان يتردد على مجالس العلم، فإذا هو بعد بضع سنين، يحتكر الفتوى في بلده، وينصرف الناس إليه، مهملين المفتي الرسمي؛ حتى اغتاظ آل العمادي – وهم أهل المفتي الرسمي – وجعلوا يستهزئون بمحمد إسماعيل الحائك، فبينما هو يمر بدارهم يومًا، على أتان له بيضاء، فوجد على الباب أخًا للمفتي، فسلم وردَّ عليه هذا الأخ السلام، ثم قال له ساخرًا: إلى أين يا شيخ؟ أذاهبٌ أنت إلى إسطنبول لتأتي بولاية الإفتاء؟! وضحك وضحك مَن حوله، أما الشيخ فلم يزد على أن قال: إن شاء الله.

فماذا فعل؟ استمر في طريقه وهو راكب الأتان، حتى إذا ابتعد عنهم دار في الأزقَّة حتى عاد إلى داره، فودَّع أهله وأعطاهم نفقة، وسافر متجهًا إلى إسطنبول، وما زال يفارق بلدًا ويستقبل بلدًا حتى دخل القسطنطينية، وما هي إلا أيام معدودات حتى عاد الحائك العامي يحمل رتبة الإفتاء، ومعها ألف دينار، جائزة له، في قصة عجيبة طريفة هي من قدر الله عز وجل.

فإلى القصة كاملة؛ كما يرويها العلامة علي الطنطاوي رحمه الله تعالى،[٢٧] يقول: "إن التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة؛ حتى تظهر وتثمر ثمرها، وتؤتي أُكُلها، وربَّ ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون – إذا شُجِّع، وأُخِذَ بيده – عالمًا من أكابر العلماء، أو أديبًا من أعاظم الأدباء، وفي علماء القرن الماضي في الشام مَن ارتقى بالجدِّ والدأب والتشجيع من حرفة الحِياكة إلى منصب الإفتاء، وكرسي التدريس حتى القُبة.

---

[٢٧] فكر ومباحث (١٣١-١٣٣)، للعلامة علي الطنطاوي، وانظر: (علو الهمة)، فصل التشجيع وأثره في التربية، الدكتور محمد بن إسماعيل المقدم.

نشأ الشيخ محمد إسماعيل الحائك عاميًّا، ولكنه محب للعلم، محب للعلماء، فكان يحضر مجالسهم، ويجلس في حلقهم للتبرك والسماع، وكان يُواظب على الدرس لا يفوته الجلوس في الصف الأول، فجعل الشيخ يؤنسه ويلطف به؛ لما يرى من دوامه وتبكيره، ويسأل عنه إذا غاب، فشدَّ ذلك عن عزمه، فاشترى الكتب يُحيي ليله في مطالعة الدرس، ويستعين على ذلك بالنابهين من الطلبة، واستمر على ذلك دهرًا حتى أتقن علوم الآلة، وصار واحدَ زمانه في الفقه والأصول، وهو عاكف على مهنته لم يتركها؛ وصار الناس يأتونه في محله يسألونه عن مُشكلات المسائل، وعَوِيصات الوقائع، فيجيبهم بما يعجز عنه فحولة العلماء، وانقطع الناس عن المفتي من آل العمادي؛ فساء ذلك العماديين وآلمهم، فتربصوا بالشيخ وأضمروا له الشر، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلاً، فقد كان يحيا من عمله، ويحيا الناس بعلمه، وكان يمر كل يوم بدار العماديين في " القيمرية " وهو على أتان له بيضاء، فيسلم فيردون عليه السلام، فمرَّ يومًا كما كان يمر، فوجد على الباب أخًا للمفتي، فرد عليه السلام، وقال له ساخرًا:

- إلى أين يا شيخ؟ أذاهبٌ أنت إلى (إسطمبول) لتأتي بولاية الإفتاء؟ وضحك وضحك من حوله، أما الشيخ فلم يزد على أن قال:

- إن شاء الله!

وسار في طريقه حتى إذا ابتعد عنهم، دارَ في الأزقَّة حتى عاد إلى داره، فودَّع أهله، وأعطاهم نفقتهم، وسافر!

وما زال يفارق بلدًا، ويستقبل بلدًا، حتى دخل القسطنطينية، فنزل في خان قريب من دار المشيخة، وكان يجلس على الباب يطالع في كتاب، أو يكتب في صحيفة، فيعرف الناس من زيِّه أنه عربي؛ فيحترمونه ويجلونه، ولم يكن التُّرْك قد جُنُّوا الجنة الكبرى بعدُ... فكانوا يعظمون العربي؛ لأنه من أمة الرسول الأعظم الذي اهتدوا به، وصاروا به وبقومه ناسًا...

واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم، فكانوا يجلسون إليه يحدثونه، فقال له يومًا رجل منهم: إن السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيَّرتْ علماءها، ولم يجدوا له جوابًا، والسلطان يستحثُّهم وهم حائرون، فهل لك في أن تراها لعل الله يفتح عليك بالجواب؟

قال: نعم.

قال: سِرْ معي إلى المشيخة.

قال: باسم الله.

ودخَلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها)، فسأله الشيخ إسماعيل عن المسألة، فرفع رأسه فقلَّب بصره فيه بازدراء – ولم تكن هيئة الشيخ بالتي تُرضي – ثم ألقاها إليه وانصرف إلى عمله، فأخرج الشيخ نظَّارته فوضعها على عينه، فقرأ المسألة، ثم أخرج من منطقته هذه الدواة النحاسية الطويلة، التي كان يستعملها العلماء وطلبة العلم للكتابة وللدفاع عن النفس، فاستخرج منه قصبةً فبَراها، وأخذ المقطع فقطَّعها، وجلس يكتب الجواب بخط نسخي جميل، حتى سوَّد عشر صفحات ما رجع في كلمة منها إلى كتاب، ودفعها إلى الناموس، ودفع إليه عنوان منزله وذهب، فلما حملها الناموس إلى شيخ الإسلام، وقرأها كاد يقضي دهشة وسرورًا.

- قال له: ويحك! مَن كتب هذا الجواب؟
- قال: شيخ شامي، من صفته كيت وكيت...
- قال: عليَّ به.

فدعوه، وجعلوا يعلمونه كيف يسلم على شيخ الإسلام، وأن عليه أن يشير بالتحية واضعًا يده على صدره، منحنيًا، ثم يمشي متباطئًا حتى يقوم بين يديه... إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التي نسيها الشيخ، ولم يحفظ منها شيئًا.

ودخل على شيخ الإسلام، فقال له:

- السلام عليكم ورحمة الله، وذهب فجلس في أقرب المجالس إليه، وعجب الحاضرون من عمله، ولكن شيخ الإسلام سُرَّ بهذه التحية الإسلامية، وأقبل عليه يسأله حتى قال له:

- سلني حاجتك؟

- قال: إفتاء الشام وتدريس القبة.

- قال: هما لك، فاغدُ عليَّ غدًا!

فلما كان من الغد ذهب إليه، فأعطاه فرمان التولية، وكيسًا فيه ألف دينار، وعاد الشيخ إلى دمشق، فركب أتانه، ودار حتى مرَّ بدار العماديين، فإذا صاحبنا على الباب، فسَخِر منه كما سخر وقال:

- من أين يا شيخ؟

- فقال الشيخ: من هنا، من إسطنبول، أتيت بتولية الإفتاء كما أمرتني، ثم ذهب إلى القصر فقابل الوالي بالفرمان، وسُلِّم الشيخ عمله في حفلة حافلة.

وفي سيرة الشيخ من الدروس والعبر الكثير، أهمها:

أن كبير الهمة يُحوِّل التثبيطَ مشجعًا له، ومُحفِّزًا قويًّا، ومن التثبيط السخرية، فلربما كانت السخرية – أحيانًا – سببًا عظيمًا من أسباب التحدي – إذا أُخِذتْ بنوع من التحدي – قد تصعد به الهمة، حين يريد المرء أن يثبت لنفسه ولهذا الشخص الذي يحتقره أنه جدير بالاحترام، وجدير بألا يكون كما يصفه، وقد حدث مثل هذا مع ذلك الحائكِ، الذي صار مفتيًا.

(٦)

صانع الكساء.. شيخ النحاة والقراء

من هو علي بن حمزة، ذلك المرء الذي تعلَّم النحو على كِبَر فلم يَصِرْ إمامًا للنُّحاة فحسب، بل صار إمامًا للغة العربية بفروعها، وأحد أئمَّة القراءة السبعة؟

كان عليٌّ هذا رجلاً عاديًّا، وكان يعمل ببَيع الملابس، وكان مع ذلك كان يتردَّد على بعض الحلقات أوقات راحته من العمل أو بعد فراغه منه طلبًا لمعرفة الواجب عليه في دينه، كما كان ذلك شأن المسلمين في سابق الزمان وخيِّره.

وصار "عليٌّ" يلتقط بعض الكلمات والجُمَل، ويفيد من بعض الشيوخ مسائل وقواعد، وكأنَّما لمس مِن نفسه ذلك؛ فصار يحافظ على حضور الدروس لا سيَّما دروس علم النحو، وكان ذكيًّا لماحًا يَحتفظ بما يسمع في ذاكرة ألمعيَّة.

كان "عليٌّ" من أهل الكوفة واستوطن بغداد، وفي يوم كان يجلس في حلقة من حلقات العلم يتدارَسُ أهلُها كلام العرب نحوًا وصرفًا، وسمع المعلِّم يسأل طلابه سؤالاً، فأحبَّ الكسائي أن يجيبَ فنظر طلاب الحلقة إليه متأفِّفين يقولون: وهل لبائع الأكسية بذلك اهتمام؟

وقيل: كان سبب توجُّهه إلى الطلب ما ذكر الفراء أنه جلس يومًا إلى قوم وقد تعبَ مِن المشْي فقال: عييتُ، فقالوا له: تُجالسنا وأنت تلحن؟! إذا أردت التعب فقل: أُعييت، وإذا أردت انقطاع الحيلة فقل: عييت، فأنِفَ مِن هذه الكلمة ولزم الشيوخ حتى ملأ علمُه وذكرُه الدنيا وشغل الناس. [٢٨]

وكانت الكلمة صادمة لنفسِه المتشوِّقة، ورُوحه الولوع، وهمَّته الرفيعة، وشاء الله أن تثبَ الكلمةُ في نفسِه مِن جانب التثبيط إلى جانب التحدِّي، وكان مِن أثر ذلك أن لَزِمَ مجلسَ عمرو بن العلاء وخدَمه سبع عشرة سنة، وجلس كذلك في حلقة الخليل وقد حوَّلته الكلمة إلى جذوة نشاط؛ فقد سأله يومًا: عمَّن

---

[٢٨] كما في تاريخ بغداد (١١ / ٤٠٤).

أخذتَ هذا العلم؟ فقال له الخليل: من بوادي الحجاز، فعزم الكسائي أمْرَه ورحَل إلى هناك فكتَب عن العرب شيئًا كثيرًا، ثم عاد إلى الخليل فوجده قد مات وتصدَّر مكانه يونس، فجرت بينهما مناظرات أقرَّ يونس للكسائي فيها بالفضل وأجلسه في موضعه.

فصار من بائع كساء عاديٍّ - ككثير من الناس - إلى إمام من أئمة النحو واللغة.

ولك أن تعلم أنَّ الدنيا حين افترقت في النحو - بعد ذلك - افترقت إلى فريقين؛ كوفيٍّ وبصريٍّ؛ فكان الكوفيون شيخهم الكسائي، كما أنَّ البصريين كان شيخهم سيبويه.

وكان من أثر ذلك هذه المناظرات التي جرت بين الكسائي وسيبويه وعموم شيوخ الكوفيين مع عموم البصريين النُّحاة من كلٍّ.

حتى قال الشافعي: من أراد أن يتبحَّر في النحو فهو عِيّل على الكسائي.

ولك أن تعلم أيضًا أنه صار من أئمة القراءات المعدودين في الدنيا؛ فقد انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة بن حبيب الزيات، وبلغ من علوِّ همَّته في ذلك أن حمزة كان يقول لتلامذته: اعرِضوا هذا الرأي على صاحب الكساء؛ لأنه كان يتَّشح بكساء ويَجلس في مجلس حمزة.

وقيل في سبب تسميته بالكسائي أقوالٌ أخرى، منها: أنه أحرم في كساء، وقيل: لأنه كان على حداثة سنه يبيع الكساء - كما أسلفنا - وقيل: لأنه كان من قرية مِن قُرى السواد يقال لها باكسايا.

الشاهد أنه لازم حمزة وأخذ القراءة عرضًا عنه أربع مرات، حتى إذا مات حمزة انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة، وصار أحد القرَّاء السبعة، حتى قال أبو عبيد في كتاب القراءات: "ليس هناك أضبط للقراءة ولا أقوم بها من الكسائي".

ولك أن تعلم - كذلك - أن الكسائي حين مات قُبض هو ومحمد بن الحسن - تلميذ أبي حنيفة وإمام الأحناف بعده - بالريِّ في يوم واحد، وكانا خرَجا مع الرشيد، فلما دُفنا قيل فيهما: دفن النحو والفقه في يوم واحد، وذلك سنة ١٨٩ هـ.

ولك أن تعلم – كذلك – أنَّ مِن أقوال العلماء فيه ما يهتزُّ لها الفؤاد طربًا:

قال فيه بعضهم: كان الكسائيُّ إذا قرأ القرآن أو تكلَّم كأنَّ ملَكًا ينطق على فيه.

وقال يحيى بن معين: ما رأيت بعينيَّ هاتين أصدق لهجةً من الكسائي.

وقال إسماعيل بن جعفر المدني – وهو من كبار أصحاب نافع –: ما رأيت أقرأ لكتاب الله تعالى من الكسائيِّ.

وقال أبو بكر بن الأنباري: "اجتمعَتْ في الكسائي أمور؛ كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم في الغريب، وأوحد الناس في القُرآن، فكانوا يَكثُرون عنده فيَجمعهم ويَجلِس على كرسي ويَتلو القرآن من أوله إلى آخره وهم يَسمعون ويَضبِطون عنه حتى المقاطِع والمبادئ".

وكان النَّاس يأخذون عنه ألفاظه بقراءته عليهم، ويُنقطون مصاحفَهم من قراءته.

رأى بعض العلماء الكسائي في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بالقرآن، فقال له: ماذا فعل حمزة؟ قال له: ذاك في عليين، ما نراه إلا كما نرَى الكَوكب. [٢٩]

وفي سيرة الكسائي فوائد جمَّة، أولاها بالتأمل أن التعلم لا زمن له، وأنه قد يرسخ في العلم ويفوق أقرانه من تعلم بعد كبره؛ مصداقًا لقوله صلى الله عليه وسلم: ((إنما العلم بالتعلم)) [٣٠]، فدع عنك المثبطات من مثل قولهم: "العلم في الكبر كالنقش على الماء"، فتالله كم من كبير أفلح في العلم حتى فاق مَن سبَقوه! وكم ثبطت مثل هذه الكلمة نوابغ وصدَّتهم عن العلم بعدما رُجي لهم تحقق ما طلبوه، وذكر القفطي في أنباه الرواة عن المفسر الأديب الشافعي سليم بن أيوب الرازي–رحمه الله–(انه تفقه بعد الأربعين من عمره..وكان يحاسب نفسه على الأوقات ولا يترك وقتًا يمضي من غير فائدة). [٣١]، ويقرب من هذا ما كان من أمر

---

[٢٩] راجع في ترجمة الكسائي: معرفة القراء الكبار (١ / ١٠٠)، الذهبي، النشر (١ / ١٧٢)، لابن الجزري، الأعلام (٥ / ١٤) للزركلي.

[٣٠] رواه الطبراني وغيره، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع.

[٣١] أنباه الرواة (٢/ ٧٠) القفطي.

الإمام الفقيه محمد بن عبدالرحمن بن أبي ذئب – رحمه الله – قال الذهبي في السِّيَر: "إنه ما طلب الحديث حتى كبر".[٣٢]

وغير هؤلاء من العلماء كثير، طلبوا العلم في الكِبَر، ولم يمنعهم كِبر سنِّهم من الطلب، بل قبل ذلك صحابة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد أسلمت الكثرة الكاثرة منهم وهم كبار في السن، فما منعهم سنُّهم من الطلب والتعلم، حتى صاروا أساتذة الدنيا في العلم الشرعي.

(٧)

القعنبي

كان شابًّا ضائعًا يشرب النبيذ ويَقضي ليله ونهاره يصحَب الأحداث والأغمار من الصبيان والشباب، يأكلون ويشربون ويمرَحون بلا غاية تجمعهم أو هدف يُشجِّعهم، كان القعنبي يقعد كلَّ يومٍ على باب بيته ينتظر قدوم أصحابه فيتَّفقون فيما بينهم على ما يفعلون في يومهم، وهو هو ما يجتمعون ويخرجون لأجله كل يوم، لا غاية ولا هدف إلا قضاء الفراغ وتمرير الوقت.

وفي يوم من هذه الأيام قعد ينتظرهم على باب البيت فمرَّ موكب عظيم من أمامه جذَب نظرَه، كأنما تخيَّله موكب الخليفة أو موكب الأمير، فقام يستكشف الحدث ويتعرَّف على ما غاب عنه من أمرِه، كان صاحب الموكب يَمتطي حماره يسرع به إسراعًا، والناس خلفه يُهرَعون، وحين نظر إليه القعنبي لم يَعرفه، إذ لم يكن الخليفة ولا الأمير، وإنما كان واحدًا غيرهما ربما لم يعهد هو رؤيته، ولم يعرف – في الحقيقة – أن الواقف أمامه كان نجمًا من نجوم ذلك الزمان، فقد كان عالمًا من علماء الحديث الكبار الذين يَجتمع الناس حولهم ويحفُّون بموكبهم ربما أكثر من الخليفة والأمير معًا، حتى قال بعض خدم الخليفة يومًا وقد رأى أحد مواكب العلماء هذه واطَّلع عليها: "هذا الملك لا ملك الخليفة".

---

(٣٢) سير أعلام النبلاء (٧ / ١٤٨)، الذهبي.

تقدَّم الشابُّ ناحية الموكب وتطلَّع في الوجه الغريب عنه وسأل من حوله:

- من هذا؟

فأجابه بعض من سمعه وقال:

- "هذا شُعبة"، إذًا هو علَم لا يُنسب؛ إذ اكتفى صاحب الإجابة باسمِه فقط، كشأن سائر الأعلام والنجوم الهاديات، لكن الشابَّ الغائب بعقله في غمرة السكر، الذاهبة حياته في خلَّة ضائعة وأيام مضيَّعة قال:

- "وأيُّ شيء شعبة"؟ كلمة تنمُّ عن كبْرٍ وتعالٍ وهزء وسخرية، وأنه لا يَعبأ بشيء مما يحدث حوله، هكذا: "وأيُّ شيء شعبة؟"

وعاد بعض من حوله يجيبونه باقتضاب يُنبئ عن عجب منه، هل فعلاً لا يدري من هو شُعبة؟! قائلين:

- "محدِّث" في كلمة واحدة، تشعر أنَّهم كانوا في شغل عن استطراد وحوار، وشعر الشابُّ بهذا فانقطع عن الأسئلة والاستفسارات، لكنَّه قرر أن يكمل الحوار مع الشخص الذي ألهب هذه المشاعر فتبعتْه قلوبها وعيونها وتابعته الآذان والأقلام تسمع وتكتب ما ينطق به، فقام إلى شعبة نفسه وواجهه قائلاً له:

- "حدثني"! ونظر شعبة فرأى شابًّا يرتدي ثوبًا أحمر ويسأله الزئبق الأحمر! فقال له على الفَور:

- "ما أنت من أصحاب الحديث فأحدِّثك"، وسمع الشاب الضائع الكلمة فإذا هي تقرَعه برفض طلبه، وما تعوَّد أبدًا على ذلك، فشهر سكِّينه في وجه شُعبة يهدِّده ويتوعَّده إن لم يحدِّثه ليفعلنَّ به ما تفعل هذه السكِّين في جسد من سلِّطت عليه، وقال:

- "أتحدِّثني أو أجرحك"؟! ومَن مثل شعبة ذكاءً وفطنة! فتخيَّر بفراسته من بضاعته ما يُجيب به تهديد الفتى لعله يرتدع، فقال له:

• حدَّثَنا منصور عن ربعيٍّ عن أبي مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت)). [٣٣]

وأصاب سهمُ شعبة مرماه، فإذا الكلماتُ تصعق الشابَّ وتهزُّه حتى إنَّه رمى سكِّينه من يده، وعزم على الإقلاع عن ذنبه ومفارقة المعصية، فرجع إلى بيته وطهَّره مما كان فيه، فقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فأراقه، وكسر آنية النبيذ وآلات اللهو، وودَّع رفاق السوء والهوى، وكأنَّما أراد أن يترك رسالة إلى رفاقه بما آل إليه حاله لعلَّهم به يتأسَّون وفي مستقبل زمانهم يرشدون، ولم يشأ أن يلقَاهم أو يقابلهم لئلا يثنوه عن عزمه أو يضعف هو برؤيتهم فيحنَّ إلى صحبتهم فقال لأمِّه: الساعة أصحابي يَجيئون فأدخليهم وقدِّمي الطعام إليهم، فإذا أكلوا فخبِّريهم بما صنعت بالشراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم يَطلب العلم والهدى، وهناك لزم مالكَ بنَ أنس فأثر عنه شيئًا كثيرًا حتى كان أعظم رواة الموطَّأ، وكانت نسختُه أصح الروايات للموطَّأ عن مالك، وذلك عجيب؛ فإن من بين رواة الموطَّأ جبالاً أمثال محمد بن الحسن إمام الأحناف!

ولكنَّ نيَّة الشاب التائب كانت قويَّة وصحيحة، وتوبته كانت صافية ونصوحًا، فصار كذلك.

وكانت كلمة شعبة هي التي حوَّلت القعنبي من سكِّير عربيد إلى إمام محدِّث كبير، ولعلَّ شُعبة لم يُلق لها بالاً، وفي هذا عظة وعبرة للذين يحبسون فضل عظاتهم عن العصاة، فلله كم من كلمة ضعضعت جبلاً من المعاصي كان يظنُّ قبلُ أنه لا يتضعضع ولا يلين.

رجع القعنبي – عبدُالله بن مسلمة وهذا اسمه – بعد فترة من مكثه في المدينة إلى بلدته، البصرة، فوجد شُعبة قد مات، فلم يسمع منه غير هذا الحديث. [٣٤]

---

[٣٣] الحديث رواه البخاري (٥٧٦٩)، عن أبي مسعود البدري – واسمه عقبة بن عمرو – رضي الله عنه، وقد تصحَّف على بعض الرواة فذكروه عن ابن مسعود رضي الله عنه، وليس كذلك.

حتى قال الحافظ أبو عمر بن عبدالبر – رحمه الله –: "لم يَروِ القعنبيُّ عن شعبة غير هذا الحديث".[٣٥]

وقال الحافظ المزِيُّ – رحمه الله –: "وليس للقعنبيِّ عن شعبة سواه".[٣٦]

و قال الحافظ الذهبي – رحمه الله – في "سير أعلام النبلاء" في ترجمة الإمام عبدالله بن مسلمة القعنبي – رحم الله الجميع –: "قال الحافظ أبو عمرو أحمد بن محمد الحيري: سمعت أبي يقول: قلت للقعنبيِّ: مالكَ لا تروي عن شعبة غير هذا الحديث؟ قال: كان شعبة يَستثقلني، فلا يُحدثني، يعني حديث: ((إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت)). [٣٧]

وقد ذكر بعضهم – في سبب سماع القعنبي من شعبة هذا الحديث فقط – غير ذلك فقالوا: إنَّ القعنبي قدم البصرة ليسمع من شعبة ويُكثر، فصادف مجلسه يوم قدومه قد انقضى، وانصرف إلى منزله، فجاء فوجد الباب مفتوحًا وشعبة على البالوعة فدخل من غير استئذان وقال: أنا غريب، قصدت من بلد بعيد لتُحدِّثني، فاستعظم شعبة ذلك وقال: دخلتَ بيتي بغير إذني وتُكلِّمني على هذه الحالة؟! اكتب: حدَّثنا منصور فذكر له الحديث ثم قال: والله لا حدثتُكَ غيرَه ولا حدثتُ قومًا أنت معهم".[٣٨]

لكن الحافظ الذهبي – رحمه الله – كذب هذه الحكاية قائلاً: "وقد رويت حكايةٌ في سماع القعنبي لذاك الحديث من شعبة لا تصحُّ وأنه هجم عليه في بيته، فوجده يَبول في بلوعة، فقال: حدثني، فلامه، وعنَّفه، وقال: تَهجُم على داري، ثم تقول: حدثني، وأنا على هذه الحالة؟! قال: إني أخشى الفوت، فروى له

---

(٣٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين، (١ / ٤٣٧) أبو الفرج بن الجوزي، سير أعلام النبلاء (٢٦١ / ١٠)، الذهبي، التوابين، فصل (توبة القعنبي)، ابن قدامة.

(٣٥) التمهيد (١٠ / ٦٩) ابن عبدالبر.

(٣٦) تهذيب الكمال (١٧٥٢) الحافظ جمال الدين المزّي.

(٣٧) سير أعلام النبلاء (٢٦١ / ١٠)، الذهبي.

(٣٨) المُنْتَخَب (١٨٠١ – ١٨٠٣)، السمعاني.

الحديث في قلَّة الحياء، وحلف ألا يُحدثه بسواه، وفي الجملة لم يدرك القعنبي شعبة إلا في آخر أيامه، فلم يكثر عنه".[٣٩]

وفي سيرة القعنبيّ فوائد جمَّة أولاها بالتأمُّل أن الماضي السيِّئ يمكن للإنسان أن يتجاوزه بسهولة ويقفز عليه إلى مستقبل مُشرق يُقابل هذا الماضي سوادًا ببياض؛ يقول المعنيّون بطبائع الطيور المهاجرة –كما يقول العقاد–: "إنها قد تضلُّ طريقها مرّة أو مرّتين أو ثلاث مرّات على الأكثر، ثم لا تلبث تلك الطيور أن تتجه إلى وجهتها وتستقيم عليها إلى أقصاها"، فلا تيئس وحاول، ومن نظر في سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية ثم الإسلام استبان له هذا المعنى وظهر له بجلاء، فلا يمنعنَّك ماضيك السيئ أن تطلب المعالي، ولا يثبّطنّك شيطانك عن الحسنات والهدى إذا أورد على خاطرك ما تلبَّسْتَ به أمس من السيئات والضلال، فإن أعرضت عنه ارتفعت إلى العلا، وإن استمعت له هويت إلى الرَّدى.

---

(٣٩) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٢٦١)، الذهبي، وهناك قصة ثالثة في سبب عدم تحديث شعبة إياه بغير هذا الحديث، وهي ما ذكره ابن نصر البخاري في [مجلس من إملائه (ق / ١٠ / ب)] قال: "ما روى القعنبي عن شعبة غير هذا الحديث؛ وذلك أنه قال له شعبة: "أتتركني في بلد وترتحل إلى مالك؟!" فألحَّ عليه القعنبيُّ وأخذ بلجام دابَّتِه فحدَّثَه بهذا الحديث، وحلف شعبة أن لا يُحَدِّثَه، والله أعلم.

(٨)

وزير العلماء

شغل كثيرٌ من العلماء مناصبَ في الدول التي عاشوا فيها، ونفع الله بمناصبهم تلك في شؤون الدِّين، وكذلك في شؤون الدُّنيا؛ لأنهم أرادوا من وراء هذه المناصب مرضاة الله تعالى، ويحفظ لنا التاريخ من أسماء هؤلاء العلماء ملوكًا وأمراء ووزراء وما دون ذلك، فمِن هؤلاء صديق حسن خان صاحب التآليف المبدعة الرائعة؛ ومنها كتاب الروضة النديَّة وغيرها، فقد كان وزيرًا وزوجًا لملكة بهوبال من أعمال الهند، وكان يلقَّب بأمير بهوبال، ومنهم محمد بن إبراهيم الوزير صاحب كتاب "العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم"، في اليمن، ومنهم صاحب قصَّتنا هذه ابن حزم، وَزَرَ لخلفاء كثيرين، وهو وزير ابن وزير؛ فقد كان والده يرأس الوزارة أيضًا لخلفاء دولة بني أميَّة في الأندلس، فنشأ صاحبنا أميرًا في هذه البلاد "الأندلس"، تلك التي ينبئ اسمها عن ترف، ومَغَانٍ، ورياض فيحاء، وخصب طيب، ومروجٍ خضراء، ومناظر مبهجة، زيَّنها بها ربُّ العالمين، حتى كانت – بحقٍّ – فردَوسًا من فراديس الأرض، وكانت ريحانة أرض الإسلام، حتى إننا لا نعجب أن يبتدئ صاحبُنا حياتَه بالكتابة عن "العشق والعشَّاق والإلف والألاف، كتابة من ذاق طعمَ الحب، وعرف ما تعتلج به نفس المحبِّ، وما يختلج في ثنايا صدره من لواعج العشق"[٤٠]، حتى لقد وصفه ابنُ القيم بأنَّ كلامه في العشق تنماع فيه نفسه انمياعًا[٤١]، وهذا مظهر النفس العطوف الألوف في صاحبنا، صنعتها الطبيعةُ التي حولها والبيئة التي تضمُّه، تمدَّانه بصفاء ورقَّة حسٍّ وإرهاف ذوق، مع رقَّة أسلوبٍ وجمال تعبير وحسن تصوير، لكن في خلوٍّ من العلم والفقه إلا بعض ما كان قد تعلم في صِغره ما يتعلمه من هو في مثل مكانته من حفظ القرآن والأشعار، وتعلم القراءة والكتابة، وإذا عرفنا أن ذلك كان على أيدي النساء، عرفنا إلى أي مدًى وصلَت تلك النفس اللعوب، لكن في عفَّة واستقامة نفس ظاهرتين.

فلا نتعجَّب ونحن نقرأ في معجم الأدباء كلام ياقوت الحموي راويًا عن أبي محمد بن العربي ما نصه:

---

(٤٠) ابن حزم (٨)، أبو زهرة.

(٤١) روضة المحبين، ابن القيم، نقلاً عن ابن حزم (٨)، أبو زهرة.

"قال لي الوزير أبو محمد بن العربي، أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أنَّ سبب تعلُّمه الفقه أنه شهد جنازةً لرجل كبير من إخوان أبيه، فدخل المسجدَ قبل صلاة العصر والحفل فيه، فجلس ولم يركع، فقال له أستاذه – يعني الذي رباه – بإشارة –: أنْ قم فصلِّ تحيةَ المسجد، فلم يفهم، فقال له بعض المجاورين له: أبلغت هذه السنَّ ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة؟ وكان قد بلغ حينئذٍ ستة وعشرين عامًا، قال: فقمتُ وركعت وفهمت إذن إشارة الأستاذ إليَّ بذلك، قال: فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد مشاركة للأحياء من أقرباء الميت، دخلتُ المسجد فبادرتُ بالركوع، فقيل لي: اجلس اجلس، ليس هذا وقت صلاة، فانصرفتُ عن الميت وقد خزيت، ولحقني ما هانت عليَّ به نفسي، وقلت للأستاذ: دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دحون، فدلَّني فقصدته من ذلك المشهد وأعلمته بما جرى فيه، وسألتُه الابتداء بقراءة العلم واسترشدته، فدلَّني على كتاب "الموطأ" لمالك بن أنس رضي الله عنه، فبدأتُ به عليه قراءةً من اليوم التالي لذلك اليوم، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام وبدأتُ بالمناظرة".[٤٢]

ومثل ركعتي تحية المسجد، سجدة السهو التي تَجبر الخَلل الذي يقع في الصلاة لم يكن ابنُ حزم وهو في هذه السن يدري عنها شيئًا؛ فقد ذكر أيضًا ياقوت عن تلميذ ابن حزم هذا قوله: "إني بلغت هذه السن – أي: سن ست وعشرين سنة – وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات".[٤٣]

لقد كانت تلك الحادثة في حياة ابن حزم رحمه الله بمثابة أفعى رقطاء أفرغت سمَّها الزعاف في جسده، فطار إلى الطبيب يلتمس لها الدواء، فإذا ابن حزم يلومُ نفسَه على عدم العلم، فيتعهدها من يومها بالعلم، حتى إنه لينظر أبا الوليد الباجي إمامَ المالكية في الأندلس فيغلبه في المناظرة، وذلك بعد حادثة المسجد هذه بسنين معدودة، وابن حزم بعد ذلك هو ابن حزم!

---

[٤٢] معجم الأدباء (١٢/ ٢٤٢،٢٤١)، ياقوت الحموي؛ ورجّح العلامة أبو زهرة أن ذلك كان وابن حزم في سن السادسة عشرة من عمره، وقال عن الرواية: إنه قد "يكون في الكلام تصحيف من النساخ، وقد كتبوا بدل العشر عشرين"؛ لأسباب ذكرها، انظر كتابه ابن حزم (ص ١١).

[٤٣] معجم الأدباء (١٢/ ٢٤٢،٢٤١).

ومن ذا في الدنيا كلها لم يسمع به، أو لم ينعم على ناظريه برؤية "المحلَّى" الذي صاغته يداه؟

وفي قصَّة ابن حزم من دُرَر الفوائد وغرر الدروس كثير، وأولاها بالإشارة هاهنا ما نبهتُ عليه قبل ذلك في سيرة شيخ نحاة الكوفة ومقرئيها الإمام الكسائي؛ أنَّ كبر السنِّ ليس عائقًا أبدًا عن التفوُّق العلميِّ والنبوغ فيه، ومن نوادر ما يذكر في ذلك – بعثًا للهمَّة وتقوية للعزيمة – أن الإمام "القفَّال" ذهب ليطلبَ العلم وعمره أربعون سنة، فقال: كيف أطلب العلم، ومتى أحفظ، ومتى أفهم، ومتى أعلِّم الناس؟

فرجع فمرَّ بصاحب ساقية، يسوق على البقر، وكان رشاء هذا الحبل يقطع الصخر من كثرة ما مرَّ، فقال: "أطلبه، ولا أتضجر من طلبه"، وأنشأ يقول:

اطْلُب ولا تَضجَر من مَطلَبٍ.. فآفةُ الطالب أن يَضجَرا

أما ترى الحبل بطول المدى.. على صليب الصخر قد أثَّرا

واستمر يطلبُ العلمَ وصار إمامًا من كبار الأئمة، ومن جهابذة الدنيا. [٤٤]

وجاء في ترجمة يحيى النحوي أنه كان ملاَّحًا، يعبر الناس في سفينته، وكان يحب العلمَ كثيرًا، فإذا عبر معه قومٌ من دار العلم والدرس التي كانت بجزيرة الإسكندرية يتحاورون فيما مضى لهم من النظر ويتفاوضونه، يسمعه فتهش نفسه للعلم، فلما قوي رأيه في طلب العلم فكَّر في نفسه، وقال: قد بلغت نيفًا وأربعين سنة وما ارتضت بشيء ولا عرفتُ غير صناعة الملاحة، فكيف يمكنني أن أتعرض لشيء من العلوم؟ وفيما هو يفكر إذ رأى نملة قد حملت نواة تمرة وهي دائبة تصعد بها، فوقعَت منها فعادَت فأخذتها، ولم تزل تجاهد مرارًا حتى بلغت بالمجاهدة غرضها، فقال: إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة والمناصبة، فبالحريِّ أن أبلغ غرضي بالمجاهدة.

---

[٤٤] علوُّ الهمَّة (٢٠٦)، محمد إسماعيل المقدم.

فخرج من وقته وباع سفينتَه، ولزم دارَ العلم، وبدأ يتعلَّم النحو واللغة والمنطق، فبرع في هذه العلوم؛ لأنه أول ما ابتدأ بها، فنُسب إليها واشتهر بها، ووضع كتبًا كثيرة، ويحيى هذا لقي عمرو بن العاص وأعجب عمرو به. (٤٥)

(٤٥) نفسه.

(٩)

محمود شاكر عميد الأدب العربي

في بستان العلم والأدب، وبين زهوره ورياحينه نشأ أبو فهر، كان واحدًا من أربعة إخوة، أبناء لعالم جليل، شغل ثاني أخطر منصب ديني في المنطقة العربية وما حولها؛ فقد شغل والده العلامة محمد شاكر منصبَ وكيل الأزهر الشريف، كان ذلك في أواخر عهد الملكيَّة بمصر.

وإذا نظرنا إلى أبناء الشيخ محمَّد الأربعة، وجدنا أنه قد برز منهم اثنان؛ الأكبر والأصغر، أمَّا الآخران فأحدهما "محمد" ولا يَرد عنه شيء، لم يعرف له اشتغال بالعلم، بل إنه لم يُكمِل تعليمه، والثاني "علي" وكان قاضيًا شرعيًّا، توجَّه إلى الاهتمام بالعلم، وساعد أخاه الشيخ "أحمد" في تحقيق بعض كتب التراث. (٤٦)

• أما "أحمد محمد شاكر" الابن الأكبر، فقد اشتغل بالعلم حتى صار محدِّثًا كبيرًا يُشار إليه بالبنان، وانتهت إليه رئاسة الحديث في مصر، وكان أحد المعدودين في هذا العلم في زمانه، وعليه المعوَّل فيه قرابة (٥٠ سنة)، ويكفي أن يذكر اسمُ "أحمد شاكر" حتى تتداعَى إلى الذِّهن مؤلفات ومقالات وأعمال وتحقيقات، خدمت العلم خدمة جليلة، ولا تزال ينهل منها الأساتذة، ويتتلمذ عليها الطُّلاب إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله. (٤٧)

---

(٤٦) جمهرة مقالات العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر (١٣، ١٤)، عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن حماد العقل.

(٤٧) المصدر السابق.

• **وأما "محمود محمد شاكر" الابن الأصغر، محور حديثنا في هذه الكلمات:**

صورة عامَّة:

• فـ "محمود شاكر" هو القارئ الذي جرَد كتب التراث الإسلامي كلها قراءة وفحصًا، لا سيما كتب الأدب والشعر واللغة، "كما لم يقرأهُ أحد في عصره، حتى شعَّت على يديه من أنواره وانبلجت من أسراره ما جعله قِبلةً لكل من أراد أن ينهل من هذا التراث ويَستكشِف مكنوناته".(٤٨)

• و"محمود شاكر" هو الجنديُّ الذي خاض المعارك مدافعًا ومنافحًا عن العربية في مواجهة التغريب، وقرر أصالة الثقافة العربية في قلوب أبنائها من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق غير قليل منهم، ونقَّب عن مصادر الشعر الجاهلي، مثبتًا أصالته، "بل كان من أوائل من اكتشف الخطر الرهيب الذي كان يَحيق بالعرب والمسلمين حين كانت سموم التبشير تتغلغل في العقول، وحمَّى التفرنُج تَنتشر، في الوقت الذي كان الكبار يحرصون فيه على إرضاء نزعات المستشرقين، وتعلم اللغات الأجنبية، وتفسير التاريخ الإسلامي بما ينسجم مع العقل الغربي المادي، فكشف عن هذا الخطر المحدق وعرَّاه".

• و"محمود شاكر" هو الرائد الذي استقرأ الكلام العربيَّ – وبخاصَّة الشِّعر – وهو لم يبلغ العشرين من عمره، فما بلغ السادسة والعشرين حتى هزَّ الأوساط الأدبية معلنًا عن منهجه الجديد، وهو منهج "التذوق"، الذي لم يأتِ أحد من أدباء العصر الحديث بمثله، بل حاول مَن حاول منهم احتذاء منهجِه فأعجزهم ذلك.

• و"محمود شاكر" هو مفكِّرٌ عميق الفِكر، بعيد الغور، واسع الأفق، فسيح الإدراك، الذي سبق جيله بمراحل، وكتب على نسق الأولين، فمن طالع ما كتبه مِن ذوي الدُّربة ظن أنه يقرأ لروَّاد العلوم الأوائل ومنظِّريه.

• و"محمود شاكر" هو الأديب الذي تسنَّم ذرى المجد الأدبي، وطارت شهرته في الآفاق.

---

(٤٨) ترجمة للأستاذ العلامة بقلم: أشهب المالكي، موقع تاريخ الفلسفة الإسلامية.

- و"محمود شاكر" هو العالم الأبيُّ، الذي سُجن في عهد عبدالناصر لأجل صدعه بكلمة الحق، فسُجِنَ تسعة أشهر؛ لوقوفه ضد ممارسات العسكريّين الذين استلموا الحكم بعد انقلاب ١٩٥٢ م، وسجن مرَّة أخرى متَّهَمًا بالدعوة إلى فتنةٍ طائفية، وبقيَ في السجن سنتين وشيئًا حتى كانت نكسة يونيه.

وفي كليهما طُلِبَ منه أن يَعتذر عما كتب ليُفرَج عنه، فرفض أشد الرفض.

وقد شهد له إخوانه أنه كان في السجن مثالاً للصبر، على كِبر سنِّه ومرضه، وكان كذلك سمح الروح، واسع الصدر.

- وأخيرًا، "محمود شاكر" هو المعنيُّ في قول الرافعي: "إنَّ مِن الناس من يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية، ينبتون ويحصدون ويعجنون ويخبزون ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها!"، وحسبُكَ بالرافعيِّ شاهدًا.

هذه هي الصورة العامة التي ترتسم بخيال من قرأ عن محمود شاكر – رحمه الله تعالى – فهو قارئ وجندي لدى هذا الدين، وهو رائد وهو قائد لمريدي التفوق فيه، وهو مفكِّر وأديب سبق زمانه بمراحل، وهو عالم أبيٌّ يبذل روحه فداءَ ما يعتنق من حق ولا يعتذر عنه..

ولو شئنا أن نقول: إن ذلك التألُّق والمجد كان نتاج تلك الصفعة التي أصابت الشاب الطالب في السنة الأولى مِن دراسته الجامعية، لم نعْدُ الحقيقة قِيدَ شبرٍ!

فمَن هو "محمود" هذا؟! وما نبأ تلك الصفعة؟!

مفارقات وعجائب:

نشأ الأستاذ محمود شاكر في بيئة متديِّنة – كما عرفنا – لكن في الوقت الذي التحَقَ فيه إخوته بالتعليم الأزهري انصرف هو إلى التعليم المدني!

فكانت تلك أولى المفارقات العجيبة في حياته؛ فقد عرفنا أن والده كان كبير علماء الإسكندرية، ثم وكيلاً للجامع الأزهر.

وقد تنقَّل "محمود" عبر مراحل التعليم المختلفة، حتى كانت المرحلة الثانوية فالتحَقَ بالقسم العلمي، وتعلَّق بدراسة الرياضيات والإنجليزي، فلمَّا اجتاز الثانويَّة فضَّل أن يلتحق بكلية الآداب قسم اللغة العربية!

وهذه أيضًا مفارقة جديدة في حياة "الطالب محمود شاكر".

وقد تعذَّر دخوله كلية الآداب في البداية؛ لأنه من خرِّيجي القسم العلمي في الثانوية، إلا أنه بوساطة من "طه حسين" لدى "أحمد لطفي السيد" رئيس الجامعة المصرية آنذاك استطاع أن يلتحق بكلية الآداب، وبدأ العام الدراسي بالكلية و"الطالب محمود شاكر" بين صفوف طلابها.

وهناك في مقاعد السنة الأولى من كلية الآداب بالجامعة المصرية حدثت المفارقة الثالثة والكبيرة في حياة الطالب والعالم محمود شاكر، حين صدم في دكتور الجامعة "طه حسين" وهو يَسمعه يُردِّد مقالةَ كفرٍ في القرآن، تلك المقالة هي أن "الشعر الجاهلي منتحَل، وأنه كذب ملفَّق، لم يقله أمثال امرئ القيس وزهير، وإنَّما ابتدعه الرواة في العصر الإسلامي ليُثبِتوا تفوُّق القرآن على كلام العرب"!

وضاعف من شدة هذه الصدمة أنَّ ما سمعه من المحاضر الكبير كان قد سبق له أن اطَّلع عليه بحذافيره في مجلة استشراقية في مقال بها للمستشرق الإنجليزي مرجليوث![٤٩] ولأن محمود شاكر اطَّلع على المقالة فقد كان سماعه لمحاضرات الدكتور طه مختلفًا عن بقيَّة الطلاب تمام الاختلاف، ومن ثمَّ جاءت المفارقة أو المحنة أو الصفعة، كما نُسميها في هذه المقالات، ولندعِ الأستاذ يروي لنا بنفسه أحداث هذه المرحلة التي ولد فيها محمود شاكر ولادة جديدة عبر محنة عظيمة قادته إلى المجد، فصار رجلاً "متعدِّد الملكات، تتصالح كلها في كيانه دون تنافُر؛ فهو الشاعر - والشعر أكبر ملكاته عندنا - وهو المحقِّق، والمؤرِّخ والناقد، والمفكِّر، وكاتب المقال، وربما بَدا للناس أنه محقِّق كل شيء؛ حيث استغرق في التحقيق من عمره السنوات

---

[٤٩] المصدر السابق.

ذوات العدد، لكنه – عندنا – شيخ المحقِّقين؛ لأنه شاعر مبدع، فبان إبداعه في كل ما خطته يراعه، وما هو بالقليل!". (٥٠)

يقول محمود محمد شاكر عن هذه الفترة:

"كان ما كان، ودخلنا الجامعة، بدأ الدكتور "طه" يلقي محاضراته التي عُرفت بكتاب: "في الشعر الجاهلي"، ومحاضرة بعد محاضرة، ومع كل واحدة يرتدُّ إليَّ رجع من هذا الكلام الأعجمي الذي غاص في يمِّ النِّسيان! وثارت نفسي، وعندي الذي عندي من المعرفة بخبيئة هذا الذي يقوله الدكتور "طه" = عندي الذي عندي من هذا الإحساس المتوهِّج بمذاق الشعر الجاهلي، كما وصفته آنفًا، والذي استخرجته بالتذوق، والمقارنة بينه وبين الشعر الأموي والعباسي.

وأخذني ما أخذني من الغيظ، وما هو أكبر وأشنع من الغيظ، ولكني بقيت زمنًا لا أستطيع أن أتكلم، تتابعت المحاضرات، والغيظ يفور بي والأدب – الذي أدَّبَنا به آباؤنا وأساتذتنا – يُمسكني، فكان أحدنا يهاب أن يكلم الأستاذ، والهيبة مُعجزة، وضاقت عليَّ المذاهب، ولكن لم تخْلُ أيامي يومئذ في الجامعة من إثارة بعض ما أجد في نفسي، في خفوت وتردُّد، وعرفتُ فيمَن عرفتُ من زملائنا شابًّا قليل الكلام، هادئ الطِّباع، جمَّ التواضع، وعلى أنه من أترابنا، فقد جاء من الثانوية عارفًا بلغات كثيرة، وكان واسع الاطِّلاع، كثير القراءة، حَسَن الاستماع، جيد الفهم، ولكنه كان طالبًا في قسم الفلسفة، لا في قسم اللغة العربية.

كان يَحضر معنا محاضرات الدكتور، وكان صفْوُه وميلُه وهواه مع الدكتور "طه"، ذلك هو الأستاذ الجليل "محمود محمد الخضيري".

نشأتْ بيني وبينه مودة، فصرتُ أُحدِّثه بما عندي، فكان يدافع بلين ورفْق وفَهم، ولكن حدَّتي وتوهُّجي وقسوتي كانت تجعله أحيانًا يَستمِع ويَصمُت فلا يتكلم.

---

(٥٠) مقال بقلم أبي همَّام عبداللطيف عبدالحليم، جمهرة مقالات محمود محمد شاكر.

كنَّا نقرأ معًا، وفي خلال ذلك كنت أقرأ له مِن دَواوين شعراء الجاهلية، وأكشف له عما أجد فيها، وعن الفروق التي تميِّز هذا الشعر الجاهلي من الشعر الأموي والعباسي، وجاء يوم ففاجأني "الخضيري" بأنه يحبُّ أن يصارحني بشيء، وعلى عادته من الهدوء والأناة في الحديث، ومن توضيح رأيه مقسمًا مفصلاً، قال لي: إنه أصبح يوافقني على أربعة أشياء:

الأول: أن اتِّكاء الدكتور على "ديكارت" في محاضراته اتكاءٌ فيه كثير من المغالَطة، بل فيه إرادة التهويل بذكر "ديكارت الفيلسوف"، وبما كتبه في كتابه "مقال عن المنهج"، وأن تطبيق الدكتور لهذا المنهج في محاضراته ليس من منهج "ديكارت" في شيء.

الثاني: أن كل ما قاله الدكتور في محاضراته، كما كنتُ أقول له يومئذ، ليس إلا سطوًا مجردًا على مقالة "مرجليوث"، بعد حذف الحجج السخيفة، والأمثلة الدالة على الجهل بالعربية، التي كانت تتخلَّل كلام ذاك الأعجمي، وأن ما يقوله الدكتور لا يزيد على أن يكون "حاشية" وتعليقًا على هذه المقالة.

الثالث: أنه على حداثة عهده بالشِّعر وقلة معرفته به، قد كان يتبيَّن أن رأيي في الفروق الظاهرة بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام، أصبح واضحًا له بعض الوضوح، وأنه يكاد يحسُّ بما أُحسُّ به وأنا أقرأ له الشعر وأفاوضه فيه.

الرابع: أنه أصبح مقتنعًا معي أن الحديث عن صحة الشعر الجاهلي قبل قراءة نصوصه قراءة متنوعة مستوعبة – لغوٌ باطل، وأن دراسته كما تدرس نقوش الأمم البائدة واللغات الميتة، إنما هو عبث محض.

واتفق أن جاء حديثُه هذا في يوم من أيامي العصيبة؛ فالدكتور "طه" أستاذي، وله علي حق الهيبة، هذا أدبنا، وللدكتور "طه" عليَّ يدٌ لا أنساها، كان مدير الجامعة يومئذ "أحمد لطفي السيد" يرى أن لا حقَّ لحامل "بكالوريا" القسم العلمي في الالتحاق بالكليات الأدبية، مُلتزمًا في ذلك بظاهر الألفاظ! فاستطاع الدكتور "طه" أن يُحطِّم هذا العائق بشهادته لي، وبإصراره أيضًا.

فدخلتُ يومئذ بفضله كلية الآداب، قسم اللغة العربية، وحفظ الجميل أدب لا يَنبغي التهاون فيه، وأيضًا فقد كنتُ في السابعة عشرة من عمري، والدكتور طه في السابعة والثلاثين؛ فهو بمَنزلة أخي الكبير،

وتوقير السن أدب ارتضعناهُ مع لبان الطفولة، كانت هذه الآداب تفعل بي فعل هوى المتنبي بالمتنبي حيث يقول:

رَمَى، واتَّقى رَمْيي، وَمِنْ دونِ ما اتَّقَى.. هوًى كاسِرٌ كَفِّي، وقَوسي، وأسْهُمي

فلذلك ظللتُ أتجرَّع الغيظ بحثًا، وأنا أُصغي إلى الدكتور "طه" في مُحاضراته، ولكني لا أستطيع أن أتكلَّم، لا أستطيع أن أناظره كِفاحًا، وجهًا لوجه، وكل ما أقوله فإنما أقوله في غيبتِه لا في مشهدِه.

تتابعت المحاضَرات، وكل يوم يزداد وضوح هذا السطو العريان على مقالة "مرجليوث"، ويزداد في نفسي وضح الفرق بين طريقتي في الإحساس بالشعر الجاهلي، وبين هذه الطريقة التي يَسلُكها الدكتور "طه" في تزييف هذا الشعر.

وكان هذا "السطو" خاصة ممَّا يهزُّ قواعد الآداب التي نشأت عليها هزًّا عنيفًا، بدأت الهيبة مع الأيام تسقط شيئًا فشيئًا، وكدتُ ألقي حفظ الجميل ورائي غير مُبال، ولم يبقَ لتوقير السن عندي معنًى، فجاء حديث الخُضري، من حيث لا يريد أو يتوقَّع، ليَنسف في نفسي كل ما التزمت به من هذه الآداب.

وعجبَ الخضري يومئذ؛ لأني استمعتُ لحديثه، ولم ألقَه لا بالبشاشة ولا بالحفاوة التي يتوقعها، وبقيتُ ساكتًا، وانصرفتُ معه إلى حديث غيره.

وفي اليوم التالي جاءت اللحظة الفاصلة في حياتي، فبعد المحاضرة، طلبت من الدكتور" طه" أن يأذنَ لي في الحديث، فأَذِن لي مبتهجًا، أو هكذا ظننتُ.

وبدأت حديثي عن هذا الأسلوب الذي سماه "منهجًا"، وعن تطبيقه لهذا "المنهج" في مُحاضراته، وعن هذا "الشك" الذي اصطنعه، ما هو، وكيف هو؟ وبدأتُ أدلِّل على أن الذي يقوله عن "المنهج" وعن "الشك" غامض، وأنه مُخالف لما يقوله "ديكارت"، وأن تطبيق منهجه هذا قائم على التسليم تسليمًا لم يُداخله الشك، بروايات في الكتب هي في ذاتها محفوفة بالشك! وفوجئ طلبة قسم اللغة العربية، وفوجئ الخضيري خاصة، ولما كدتُ أفرغ من كلامي، انتهرَني الدكتور "طه"، وأسكتني، وقام وقمنا لنخرج،

وانصرف عني كل زملائي الذين استنكروا غِضابًا ما واجهتُ به الدكتور "طه"، ولم يبقَ معي إلا محمود محمد الخضيريُّ – من قسم الفلسفة كما قلت.

وبعد قليل أرسل الدكتور "طه" يُناديني، فدخلتُ عليه وجعل يُعاتبني، يقسو حينًا ويرفق أحيانًا، وأنا صامت لا أستطيع أن أرد، لم أستطع أن أكاشفه بأن محاضراته التي نسمعها كلَّها مسلوخة من مقالة "مرجليوث"؛ لأنها مكاشفة جارحة من صغير إلى كبير، ولكني على يقين من أنه يعلم أني أعلم، من خلال ما أسمع حديثه، ومن صوته، ومِن كلماته، ومن حركاته أيضًا! وكتمان هذه الحقيقة في نفسي كان يزيدني عجزًا عن الرد، وعن الاعتذار إليه أيضًا، وهو ما كان يرمي إليه، ولم أزل صامتًا مُطرقًا حتى وجدت في نفسي كأني أبكي من ذلِّ العجز، فقمتُ فجأة وخرجت غير مودِّع ولا مبالٍ بشيء.

وقُضي الأمر! ويبس الثرى بيني وبين الدكتور "طه" إلى غير رجعة!

ومن يومئذ لم أكفَّ عن مُناقَشة الدكتور في المحاضرات أحيانًا بغير هيبة، ولم يكفَّ هو عن استدعائي بعد المحاضرات، فيأخذني يَمينًا وشمالاً في المحاورة، وأنا ملتزم في كل ذلك بالإعراض عن ذِكْر سَطوه على مقالة مرجليوث، صارفًا همِّي كله إلى موضوع "المنهج" و"الشك"، وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلي والأموي والعباسي قراءة متذوِّقة مستوعبة، ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي قبل الحديث عن صحة نسبةِ هذا الشعر إلى الجاهلية، أو التماسِ الشُّبه لتقرير أنه باطل النِّسبة، وأنه موضوع في الإسلام، من خلال رواياتٍ في الكتب هي في حد ذاتها محتاجة إلى النظر والتفسير.

ولكني من يومئذ أيضًا لم أكفَّ عن إذاعة هذه الحقيقة التي أكتمُها في حديثي مع الدكتور "طه"، وهي أنه سَطا سطْوًا كريهًا على مقالة المستشرق الأعجمي، فكان، بلا شك، يبلغه ما أذيعه بين زملائي.

وكثر كلامي عن الدكتور "طه" نفسه، وعن القدر الذي يَعرفه مِن الشعر الجاهلي، وعن أسلوبه الدالِّ على ما أقول.

واشتدَّ الأمر، حتى تدخل في ذلك، وفي مناقشتي، بعض الأساتذة؛ كالأستاذ "نلّينو" والأستاذ "جويدي" من المستشرقين، وكنتُ أصارحهما بالسطو، وكانا يعرفان، ولكنهما يداوران، وطال الصراع غير

المتكافئ بيني وبين الدكتور "طه" زمانًا، إلى أن جاء اليوم الذي عزمتُ فيه على أن أفارق مصر كلها، لا الجامعة وحدها، غيرَ مبالٍ بإتمام دراستي الجامعية طالبًا للعزلة، حتى أستبين لنفسي وجه الحق في "قضية الشعر الجاهلي" بعد أن صارت عندي قضية متشعبةً كل التشعُّب. (٥١)

لقد قرَّر "محمود شاكر" إذًا أن يترك الجامعة بعد أن سقطت هيبتُها من نفسه، وبعد أن عجز – لطبيعة فيه – أن يَحتمل هذا الفساد الذي رآه في أساتذته ومعلِّميه، فترك الجامعة غير آسِفٍ عليها وهو في السنة الثانية؛ لأنه لم يعُدْ يثق بها، ولم تفلح المحاولات التي بذلها أساتذته وأهله في إقناعه بالرجوع، وهاجر إلى جدة، وأقام بها مدَّة، حتى استدعاه والده الشيخ فعاد إلى القاهرة، وقد فُتح له من أبواب العلم فتوح، فشرع الشيخ شاكر في قراءة التراث وشرحه، وحرَّر مقالات المجلات الأدبية المتنوعة، وألَّف الشعر، ونقَدَ، وخاض معارك، وكشَف زيوفًا.

ومن هنا – من هذه الصفعة – كانت بداية محمود شاكر العلَم الأشمّ في تاريخ الأدب المعاصر.

ومن معركة إلى معركة انتقل محمود شاكر يذبُّ العادين عن الإسلام وكتابه ولغته، ومن كنز إلى كنز راح محمود يكشف عن التراث الإسلامي، ومن نجم إلى نجم ظل يَقفز حتى تسنَّم ذُرا المجد الأدبي عن جدارة واقتدار، وفي مساء يوم الخميس ٣ ربيع الآخر ١٤١٨ هـ – ٧ أغسطس ١٩٩٧م، فاضت روح العملاق العلامة إلى بارئها، تاركةً مكانه فراغًا كبيرًا لم يُسدَّ وقد مضى على ذلك التاريخ قرابة عشرين سنة. (٥٢)

---

(٥١) المتنبي (١٣ – ١٧)، محمود محمد شاكر.

(٥٢) ترجم لمحمود محمد شاكر كتبٌ ليس عددها بالذي يفي بحق عملاق مثله، ومن هذه الكتب التي عنيت بترجمته:

"قصة قلم" للكاتبة الأديبة عايدة الشريف، و"محمود محمد شاكر الرجل والمنهج" عمر حسن القيام، و"محمود محمد شاكر وقضية الشعر الجاهلي" عمر حسن ذياب عمر، و"محمود محمد شاكر الأديب الناقد" إبراهيم محمد كوفحي، و"محمود محمد شاكر شاعرًا"، و"شيخ العروبة وحامل لوائها أبو فهر بين الدرس الأدبي والتحقيق"؛ لمحمود إبراهيم الرضواني، و"هدم الدساكر على مَن بغى على الرافعي وشاكر" وائل حافظ خلف.

رحمك الله أبا فهر، وأبقى في العالمين مسْكَ أنفاسك، وجزاك ربي عن دينه خير ما جزى عاملاً أحسن وأخلص.

يَا بَرَّدَ اللهُ مَضْجَعًا سَخِنَتْ.. بِهِ عُيُونٌ تَبِيتُ تَحْتَسِبُهْ

مَا صَوَّحَتْ مِنْ نَادِيكَ زَهْرَتُهُ.. يَا راحِلاً لَيْسَ تَنْطَوِي كُتُبُهْ[٥٣]

[٥٣] من "مرثيَّة إلى أبي فهر"، بقلم أبي همَّام – رحمهما الله-.

خاتمة

ذلك ما كنت تأملته من سوانح الخاطر، ثم جف الحبر وتوقف القلم... عساه يعود إلى هذا النبع من جديد؛ يرتوي منه ويحمل السقاء إلى الراغبين، وعسى ذلك يكون قريبًا، والحمد لله رب العالمين.

أبو حفص أحمد الجوهري عبد الجواد

في عيد الفطر المبارك – ١٤٣٦هـ

المحتويات

٠ .....

صفحة من علوّ الهمّة ١

صَفعات ١

قادت إلى الخيرات ١

تأليف ١

أبي حفص أحمد الجوهري عبدالجواد ١

مقدمة ٢

تمهيد ٣

عالِمٌ بين محنتين؛ رافعةٌ وقاتلةٌ ٥

حجة الإسلام الغزّالي ألهمَه اللصوصُ مفتاحَ العلم! ١١

أبو حنيفة وتوجيه امرأة! ١٤

قمر القرن الرابع عشر الهجري ١٨

خياط أميٌّ هو المفتي! ٢٢

صانع الكساء.. شيخ النحاة والقراء ٢٦

القعنبي ٢٩

وزير العلماء ٣٤

محمود شاكر عميد الأدب العربي ٣٨

خاتمة ٤٨

فتحُ المنّان

في تخريج أحاديث وآثار

أضواء البَيان في إيضَاح القرآن بالقرآن للشنقيطي

تأليف

أبي حفص أحمد الجوهري عبدالجواد

سلسلة الخطب المنبرية

خُطَبٌ عقَديَّة

كتاب التوحيد في خطب منبريّة

قرّظه وقدّم له

الدكتور زكي أبو سريع الدكتور جمال المراكبي

الدكتور محمّد العريفي الدكتور مصطفى مراد

تأليف

أبي حفص أحمد الجوهري عبدالجواد

تقريبُ السنّة بين يدَي الأمّة

تَعجِيلُ المَنفَعَة

بِجَمعِ صَحِيحِ السُّنَنِ الأربَعَة

تأليف

أبي حفص أحمد الجوهري عبدالجواد

{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [الأنعام: ٩١]

القَـرَاطِيس

فرائضُ وواجبات

فرّط فيها كثيرٌ من المسلِمين والمسلِمَات

تأليف

أبي حفص أحمد الجوهري عبدالجواد

من مباحث السنن المهجورة

اللآلِئُ المَنثُورَة

في التَّنويع بَين أَوجُهِ السُّنَّةِ وَأعدَادِها المأثُورَة

حوَى قريبًا من ٤٠٠ سنَّة نبَويّة فِي بَاب العمل بجَميع وجُوه السّنَن الوَاردَة عَلى وُجُوهٍ متنوّعة كتبَني اللهُ ومُطالعيه فيمَن يُحييهَا

تأليف

أبي حفص أحمد الجوهري عبدالجواد